دراسات في الأدب العربي

تأليف
معاذ السرطاوي

دار
مجدلاوي
للنشر والتوزيع
عمان - الاردن

دراسات
في الأدب العربي

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ -١٩٨٨م

دار
مجدلاوي
للنشر والتوزيع
ص.ب ١٨١٩ تلفون ٦٥٨٨٥٩
عمان - الاردن

الإهداء

إلى من أعزني الله بعزهما

إلى والديّ... أطال الله في عمرهما

أهدي ثمرة جهدي وخلاصة فكري وعصارة قلبي

المؤلف

رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
(٢٦٦/ ٥/ ١٩٨٨)

٩٠٩ر٨١٠ معاذ السرطاوي
دراسات في الأدب العربي/ معاذ السرطاوي ـ عمان :
دار مجدلاوي للنشر، ١٩٨٨ .
(١٩١) ص
ر. أ (٢٦٦/ ٥/ ١٩٨٨)
١ ـ الأدب العربي أ ـ العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا كتاب في الأدب العربي أضعه بين يدي طلبة اللغة العربية وآدابها وأهديه إلى مدرسي اللغة والأدب العربيين، وقد جاءت موضوعاته منتخبة مختارة ابتدأت من صدر الإسلام وانتهت بعصر بني أمية، وقد سميته «دراسات في الأدب العربي» لتعكس تسميته محتواه، وينتفع به طالب العلم والفن دون سواه فلا يضل ولا يذهب وفق هواه.

وقد وفقني الله تعالى بفضله ومنته، وأعانني على جمع مادته وتحرير فصوله فقمت بتحليل هذه النصوص ودراستها دراسة أدبية واعية وفق أسلوب سهل قريب إلى النفس بعيد عن الصعوبة والتعقيد يوفر على طلبتنا الوقت الغالي والجهد الثمين وعلى مدرسينا عناء التفتيش والتنقيب عن موضوع الدراسة كي يصرفوا جل همهم وعظيم جهدهم إلى البحث والدراسة والتحليل المتسفيض للنص المدروس لتعم الفائدة، وتزيد المنفعة، ولذلك قمت بإيراد النص أولاً شعراً كان أو نثراً واتبعته بحياة صاحبه وما يتعلق بها وبجوانب الإبداع عنده، ثم حددت الأفكار الرئيسية في النص وقمت بعدها بدراسته وشرحه شرحاً أدبياً وفنياً وافيين.

وما دفعني للتصدي لهذا الموضوع والكتابة فيه ، واعطائه أهمية خاصة وإيلائه عناية فائقة ، ما لمسته من معاناة وبذل للجهد دون طائل لأبناء العربية في تناول مادة مختارات من الشعر القديم المقررة عليهم فقد توزعت موضوعات هذه المادة ووحداتها المتعددة على مصادر ومراجع شتى تستهلك من الطالب وقتاً طويلاً وجهداً عظيماً حتى يعثر عليها ، وإن عثر عليها بعد هذا الجهد والتعب وجدها جافة ممجوجة تفتقر إلى الشرح والتوضيح وتبيان خصائصها الأدبية والفنية على حد سواء ، لهذا كله ألح عليّ طلبة هذا التخصص أن أضع لهم ولغيرهم من أبناء العربية والراغبين في الاطلاع على نماذج مختارة من أدبنا العربي الأصيل ، وتراثنا القيم الجليل ، هذا المؤلف الأدبي الذي كان نتاج بحث طويل ، وتنقيح مستمر طوال مدة تدريسي لهذه المادة امتدت زهاء عشر سنين مما جعلها قريبة المتناول سهلة المأخذ ميسورة الدراسة والتدريس ، فاستخرت الله العلي القدير في هذا الأمر فألهمني بفضله وجزيل كرمه أن أعقد النية ، واستجمع العزم والهمة لتحقيق ذاك المطلب ، وانفاذ هذا المأرب ، وتلبية تلك الرغبة لأعزائنا الطلبة فكان هذا الكتاب الموسوم بـ «دراسات في الأدب العربي» خلاصة هذه السنين وثمرة ناضجة لطلبتنا الراغبين ومدرسيهم أجمعين راجياً المولى عز ذكره وجل مقامه أن تتحقق به المنفعة ، وتعم به الفائدة .

فانعم أخي المنتفع فيه نظرك وقل «ذلك فضل الله يؤتيه» فإن رأيت فيه هفوة فقل طغى القلم وزل ، فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ، وأي الرجال المهذب؟؟ فكن أخي القارىء من البانين لا من الهادمين ، ومن الموجهين الناصحين لا من الشامتين الحاسدين فحاشك أن تكون ممن عناهم الشاعر بقوله : ـ

ولا تطمعن من حاسد في مودة   وإن كنت تبديها له وتنيل

أما موضوعات الكتاب وفصوله السبعة التي اشتمل عليها فقد جاءت مرتبة ترتيباً يتفق والخطة المقررة والمنهج المحدد ينسجم مع ما بين هذه الفصول من تشابه واتفاق في المواضيع ، فالفصل الأول والثاني لشاعرين

مخضرمين موضوعهما واحد هو الرثاء ورغم هذا الاتفاق الظاهري فإنك تجد بينهما فرقاً شاسعاً وبوناً واسعاً لغلبة الأخوة على متمم بن نويرة وتمكن العقيدة وغلبتها على حسان بن ثابت فألفاظ الأول ومعانيه وصوره وأفكاره كانت إلى الجاهلية أقرب منها إلى الإسلام بل إننا لا نجافي الحق والحقيقة إن قلنا أنها جاهلية محضة. أما الفصول الثلاثة التي تلت ذلك فقد جاءت لتخدم الدولة الإسلامية وتضع أسس نظامها، وترسي قواعد عزها ومجدها ليعرف كل فرد فيها حقه وواجبه، ولتحقيق هذا الهدف السامي والغاية النبيلة جاءت سورة الحجرات، وحجة الوداع، ورسالة ابن الخطاب في القضاء.

أما الفصل السادس والسابع من هذا المؤلف فقد خصصا لعصر بني أمية وما طرأ فيه من تبدل وتغير على الشعر وأهله بل على المجتمع العربي الإسلامي بشكل عام، فعمر بن أبي ربيعة يمثل بيئة الحجاز الأموية بكل ما فيها من رقة وسهولة وما يسيطر عليها من لهو وترف لابتعاد السياسة عنها أو لابعادها عن السياسة.

أما جرير فيمثل بيئة العراق الأموية بكل ما تتميز به من خشونة وقوة لقربها من البادية أولاً وكونها مركز علم الكلام والجدل والفلسفة ثانياً، وهذا ما أهلها قبل غيرها لتكون موطن الهجاء والهجائين فكان جرير رأس هؤلاء الهجائين، وخاتمة هذا الجهد المبين الذي انتهى بحمد الله وعونه إلى وضع هذا التأليف المحكم الرصين.

فالله أسأل وإليه أتوسل أن يلبسه ثوب الرضى والقبول، وينزله منزلة الكريم المسؤول، فيقع على الأسماع وقوع الآى والذكر، ويتمكن من القلوب تمكن العقل والفكر فهو حسبي ونعم الوكيل.

والسلام...

المؤلف

(١٩٨٨)

الفصل الأوّل

مِنَ الشِّعر الإسلَامي

قصيدة متمم بن نويرَة

قبل التحدث عن قصيدة متمم بن نويرة وخصائصها ومميزاتها الأدبية والفنية لا بد لنا قبل ذلك من معرفة خصائص الشعر في صدر الإسلام بشكل عام.

خصائص الشعر في صدر الإسلام

١ ـ من حيث **اللفظ والمعنى**: اختفت من الشعر في هذا العصر الألفاظ والمعاني الجاهلية التي لا تتفق وتعاليم الإسلام وخاصة ما يتعلق منها بالعصبية والغزل والخمر.

كما أن ألفاظ الشعر الإسلامي لم تكن معقدة وغريبة كما هو الحال في الشعر الجاهلي ولذلك ابتعدت معاني وألفاظ الشعر الإسلامي عن الصعوبة والوعورة والخشونة الجاهلية.

٢ ـ من حيث **الأسلوب**: لم يكن أسلوب الشعر في هذا العصر بنفس القوة التي كان عليها أسلوب الشعر الجاهلي وذلك لأن الشاعر الإسلامي كان عليه أن يختار لفظه ومعناه وفق تعاليم الإسلام بينما هو في الجاهلية يختار ما يحلو له ويقول الشعر على سليقته دون قيود أو موانع.

٣ ـ من حيث **العاطفة**: كانت عاطفة الشاعر الإسلامي في أغلب الأحيان صادقة لا تكلف فيها ولا كذب ولا رياء وذلك لأن تعاليم الإسلام تنص على ذلك.

كما أن عاطفة الشاعر الجاهلي كانت صادقة لأن العربي ينطلق من طبعه السليم الذي لا يعرف الرياء أو الكذب .

٤ ـ من حيث **الأغراض الشعرية** : ظهرت في هذا العصر أغراض شعرية جديدة إلى جانب الأغراض الشعرية في العصر الجاهلي حيث ظهر في هذا العصر شعر الجهاد الذي يمجد الشهادة ويدعو إلى التضحية والفداء ، كما ظهر شعر الدعوة الإسلامية الذي يدعو إلى الإسلام وتعريف الناس بتعاليمه .

هذا بالإضافة إلى أن أغراض الشعر جميعها كانت ملتزمة في ألفاظها ومعانيها بتعاليم الإسلام وقواعده القويمة .

وسوف نفصل الحديث في خصائص الشعر في هذا العصر في الفصل الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

قصيدة مُتَمِّم بن نُوَيْرَة

وقال أبو نهشل متمّم بن نويرة بن جَمْرَة بن شدّاد بن عُبَيد بن ثعلبة بن يَرْبوع حنظلة بن مالك بن زَيْدِ مناة بن تميم بن مُرّ بن أد بن طابخة بن الياس بن مُضر نزار بن معد بن عدنان. يرثي أخاه مالكاً وكان أخوه مالك قد قتل فيمن قتل من مانعي الزكاة والمرتدين زمن أبي بكر(*).

١ ـ لعَمْرِي وما دَهْرِي بتَأْبينِ هالكٍ ... ولا جَزَعاً مما أصاب فأوْجَعَا

دهري: هَمّي. والتأبين: مَدْح الميت. يقال: ما دَهْري كذا: أي ما هَمّي.

٢ ـ لقد غيَّبَ المِنْهالُ تحت ردائه ... فتًى غَيْرَ مِبْطَانِ العَشِيَّات أرْوَعَا

[المِنْهَال: الذي دفنه(١)]. والأروع: الذي يُروعُك بحُسْنِه(٢).

٣ ـ ولا بَرَماً تُهْدِي النساءُ لعِرْسِه ... إذا القَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشتاءِ تَقَعْقَعَا

القَشْع: النِّطْع(٣).

٤ ـ لَبِيباً أعانَ اللبَّ منه سماحَةٌ ... خَصِيباً إذا ما راكبُ الجَدْبِ(٤) أوْضَعَا

أوضعا: أسرعا.

---

(١) المنهال: رجل ألقى ثوبه على مالك أخي متمم بعد قتله ـ يَسْتُره.

(٢) وقوله: غير مِبْطَان العشيات: أي كان لا يأكل في آخر نهاره انتظاراً للضيف.

(٣) في الكامل: القَشْع: الجلد اليابس. والبَرَم: الذي لا ينزل مع الناس. ولا يأخذ في المَيْسِر. يريد أنَّ مالكاً يَيْسِرُ في وقت الجدب. وفي الأمالي: البرم: البخيل.

(٤) في أ: الحرب.

٥ ـ أغرَّ[١] كَنَصْلِ السيفِ يَهْتَزُّ للنَّدَى إذا لم تَجِدْ عند امرىء السُّوْء مَطْمَعا
٦ ـ إذا اجتزأ[٢] القومُ القِدَاحَ وأُوقدت لهم نارُ أيسارٍ[٣] كَفَى مَنْ تضجَّعَا

تضجَّع في الأمر: إذا لم يحكمه[٤].

٧ ـ ويوماً[٥] إذاما كظَّكَ الخَصْمُ إن يكن نَصِيرَك[٦] منهم لا تكنْ أنْتَ أضْرَعَا

الأضرع: الضعيف[٧].

٨ ـ بِمَثْنَى الأيادِي ثم لم تُلْفِ مالِكاً لدَى الفَرْثِ يَحْمِي لَحْمَه أنْ يُمَزَّعَا[٨]

التمزيع: التقطيع. ومَثْنَى الأيادي: الذي يفضل من الجزور[٩].

٩ ـ فعَيْنَّى جُودَا بالدموعِ لمالكٍ إذا أَذْرَت الريحُ الكنيفَ المُنَزَّعَا[١٠]

الكَنيف: حَظِيرة تُجْعل للإبل ـ من ديوان الأدب.

١٠ ـ وللشُّرْبِ فابْكى مالِكاً ولبُهْمَةٍ شديد نَواحيها[١١] على مَنْ تَشَجَّعَا

الشُّرْب: جمع شارب. والبُهمة: جماعة الخيل[١٢].

---

(١) في ع: تراه.
(٢) في ع: إذا القوم فازوا بالقداح.
(٣) في م: أثار.
(٤) ليس في جـ. وفي شرح المفضليات: الأيسار: جمع يَسر. وهم أشراف الحي الذين يحرون لهم في الحدب ويطعمون. وقوله: كفى مَنْ تصجّعا: أي إذا بقي من القِداح شيء لم يؤخذ ـ أخذه مع قِدْحه، فكان له غُنْمه وعليه غُرمه.
(٥) في أ: ويوم.
(٦) في م: لم يكن يضيرك.
(٧) من جـ. وكظّك: بلغ منك غاية الغمّ حتى يقطعك عن الكلام.
(٨) في م: لدى القرب . . . أن يمزّعا.
(٩) في ب، حـ: الذي يُفْصَل عن الجزور، وفي المفضليات: ومثنى الأيادي: أن يأخذ قدحين. ويقال: بل يثْني عليهم يداً بعديدٍ من معروفه. والفرْث: حشوة الكرش.
(١٠) في م: فعيني جودي . . . إذا أردت . . . المربّعا. والمثبت في ع. جـ. والأمالي. وقال في شرح المفضليات: أي هو منزّع في وقت إذرائها إيّاه.
(١١) في م: نواصيها. والمثبت في أ، ب، جـ، والأمالي. وفي المفضليات: تديد نواحيه.
(١٢) هذا في الأصول. وفي شرح المفضليات: البهمة: الشجاع. يريد: فابكي مالكاً للشُّرْب،

١١ ـ وللضيف إذ أرْغى[١] طُروقا بعيره وعـانٍ ثوَى في القِـدِّ حتـى تكنَّعَا

تكنّع: تقبّض[٢].

١٢ ـ وأرْملـةٍ تَسْعَـى بأشعـث مُحْثَلٍ كفَـرْخِ الحُبَـارى رأسُـه قد تصوَّعا

المُحْثل: سيِّىء الغذاء. والتصوّع: ذهاب الشعر.

١٣ ـ فتى كان مِخْذَاما[٣] إلى الرَّوْع رَكْضُه سرِيعـاً إلى الداعـي إذا هو فُزِّعَا[٤]

١٤ ـ وماكان وقَّافاً إذا الخيل إحجَمتْ[٥] ولا طائشـاً عنـد اللقـاءِ مُرَوَّعا

المِخْذام: المسرع. أحجم: أي تخلف. والمروع: كثير الرَّوْع.

١٥ ـ ولا بِكَهَـامٍ نَاكِلٍ عَنْ عَدُوِّهِ إذا هو لاقَـى حاسِراً[٦] مُقَنَّعـا

١٦ ـ إذا[٧] ضرَّس الغَزْوُ الرجالَ وجَدْتَهُ أخا الحـربِ صِدْقـاً في اللِّقـاءِ سَمَيْدَعا

ضرَّس: اشتد عليهم[٨].

١٧ ـ وإنْ تَلْقه في الشَّرْب لا تَلْقَ فاحِشا على الشَّرْبِ ذا قاذُورَةٍ مُتَزَبعاً

المتزبع: السيء الخلق[٩].

١٨ ـ أبَـى الصَّبْرَ آياتٌ أراهـا وأنَّني أرى كلَّ حَبْـلٍ بَعْـدَ حَبْلِك أقْطعا[١٠]

لأنه كان يسقيهم وينحر لهم، وابكيه للشجاع لأنه كان يكفيه قومه.

(١) في م: إن أزجى.

(٢) من أ، جـ. وفي شرح المفضليات: إنما يُرغى الضيفُ بعيرَهُ إذا أتى الحي ليسمعوا الرِّغاء فيعلموا أنه رغاء ضَيْف فيدعوه إلى منازلهم. والطروق في الليل.

(٣) في ع. حـ: مجذاما.

(٤) في ب، جـ: أفرعا.

(٥) في أ: أزمعت.

(٦) في م: ومقنّعا. والكهام: الكيل. حاسر: لا سلاح معه. والمقنّع: خلاف الحاسر.

(٧) في ع: وإن ضرّس . . .

(٨) ليس في أ. والسميدع: السيدْ الكريم.

(٩) في شرح المفضليات: قال أبو جعفر: القاذورة والمتزبّع: واحد، وهو الذي فيه فُحْشٌ وسُوءُ خُلُقٍ.

(١٠) الآيات هنا: آثار كرمه التي عدّها في قصيدته قبل. أرى كل حَبْل . . . يقول: أرى كل مواصلة بعدك قطعا.

١٩ ـ وأني متى ما أَدْعُ باسْمِك لا تجُبْ وكنتَ حَرِيًّا[١] أنْ تجُيبَ وتُسْمِعَا
٢٠ ـ أقولُ وقد طار السَّنَا[٢] في رَبَابه بجَوْنٍ[٣] يَسُحُّ الماءَ حتى تريَّعَا

الرَّبَاب: السحاب. [تريّع: تردّد].

٢١ ـ سقَى اللهُ أرضاً حلَّها[٤] قبْرُ مالك ذِهَابُ[٥] الغَوَادِي المُدْجِنَاتِ فأمْرَعَا

أمرع: أخصب. الذِّهَاب: جمع ذِهْبَة: وهي المَطرُ الكثير.

٢٢ ـ فمختلفَ[٦] الأَجْزَاعِ مِن حَوْلِ شارع فروَّى جِبَالَ القَرْيتَينْ فضَلْفَعَا

شارع: وضَلْفع: موضعان.

٢٣ ـ وآثَرَ سَيْلَ الوادِيَيْنْ بديمةٍ تُرَشِّحُ وَسْمِيًّا من النَّبْتِ خِرْوَعَا[٧]
٢٤ ـ تحيَّتُهُ مِنّي وإنْ كان نائياً وأمْسَى تُراباً فوقه الأرْضُ بَلْقَعَا[٨]
٢٥ ـ فإنْ تكنِ الأيامُ فرَّقْنَ بَيْنَنا فقد بان محموداً أخِي يومَ ودَّعَا
٢٦ ـ وعِشْنَا بخيرٍ في الحياةِ وقَبْلَنَا أصابَ المنايا رَهْطَ كِسْرَى وتُبَّعَا
٢٧ ـ وكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدهْرِ حتى قِيلَ لَنْ يتصدَّعَا[٩]
٢٨ ـ فلمَّا تفرَّقْنَا كأني ومالِكاً لطُولِ اجتماعٍ[١٠] لم نَبِتْ ليلةً مَعَا
٢٩ ـ فَتًى كان أحْيى مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ وأشْجَعَ من لَيْث إذا ما تمنَّعَا[١١]

---

(١) في ب: جديراً.

(٢) في م: وقد طال السنا. وفي أ: طار الشتا: . . . وفي الأمالي: السنا: ضوء البرق.

(٣) في أ: الجَوْن. . . وفي ع: وجونٌ. . .

(٤) في الأمالي: فوقها. . .

(٥) الذهاب: اسم للمطر يكون لقليله وكثيره. (الأمالي).

(٦) في ع: فمنعرج. وفي أ: فتختلف. . .

(٧) تُرَشّح: تغذّى. والوسمى: أول مطر يقع على الأرض. والخِرْوع: اللين من كل شيء.

(٨) بلقع: أرض مستوية لا نبْت بها.

(٩) ندماني جذيمة: مالك وعقيل بن بَلْقين بن جَسر بن قضاعة، نادَمَا جذيمة بن الأبرش حين ردَّا عليه ابن أخته عمرو بن عديّ.

(١٠) في ب: لطول افتراق. . .

(١١) في م: إذا ما تمتعا. . .

٣٠ ـ تقولُ ابنة العَمْرِيِّ مالكَ بَعْدَمَا أراكَ قديماً ناعِمَ الوَجْهِ أَفْرَعَا[1]
٣١ ـ فقلتُ لها طولُ الأَسَى إذ سألتني ولوعةُ حُزْنٍ تتركُ الوَجْهَ أسْفَعَا[2]
٣٢ ـ وفَقْدُ بني أمٍّ تَوَلَّوْا ولم أكُنْ خلافَهُم[3] أَنْ أَسْتَكِينَ فأَخْضَعَا[4]
٣٣ ـ ولكنني أَمْضِي على ذاكَ مُقْدِماً إذا بعضُ مَنْ يَلقَى الخطوبَ تَضَعْضَعَا
٣٤ ـ قَعِيدَكِ أَلاَّ تُسمِعيني مَلاَمَةً ولا تَنْكَئي قَرْحَ[5] الفؤادِ فَيِيجَعا

قعيدك: يمين للعرب يحلفون بها[6]. يَيجَع: يوجع. والنكاية للجرح: أن يحرك ألمه.

٣٥ ـ وحَسْبُكِ أني قد جهدتُ فلم أَجِد بكفِّيَ عنه للمنيّة مَدْفعا
٣٦ ـ وما وَجْدُ أَظْآرٍ ثلاثٍ رَوَائم رأيْنَ مَجَرًّا مِنْ حُوَارٍ ومَصرَعَا

الأظآر: جمع ظئر، وهي الناقةُ التي تعطفُ على غير ولدها. والرائم: العاطف. وقوله: رأيْنَ مجرًّا: أي مسحبا: من حُوَارٍ، وهو ولدُ الناقة، وقَدْ فَرسه الأسد، ولم يجد إلاّ مجرّه ودَمَه.

٣٧ ـ فذَكَّرْن[7]ذا البثِّ الحزينِ بشجوه إذا حنّت الأولى سجَعْنَ لها معا

البثُّ: أشدُّ الحزن. والشجو: الحزن نفسه.

٣٨ ـ إذا شارفٌ منهنَّ حنَّتْ فرجَّعَتْ من الليل أَبْكى شجوُها البَرْكَ أَجْمَعَا

[الشارف: المسنّة. البَرْك: الإبل الكثيرة]

٣٩ ـ بأَوْجَدَ[8] مِنّي يومَ فارَقْتُ مالكا وقام به النائي الرفيعُ فأَسْمَعَا

---

(١) الأفرع: الكثير شعر الرأس.
(٢) السفعة: سوادٌ يضرب إلى حمرة.
(٣) خلافهم: بعدهم.
(٤) في ع: . . . وأجزعا.
(٥) في أ، ب: جرح الفؤاد.
(٦) في الأمالي: قعيدك: بمعنى بتقرُّبك إلى الله.
(٧) في ع: يذكّرن.
(٨) في ع: بأوجع . . .

٤٠ ـ وإنّي وإنْ هازلْتِني قد أصابني من الـرُّزْءِ ما يُبْكِي الحَـزينَ المُفَجَّعا

هازلْتِني: لاعَبْتِني.

٤١ ـ ولستُ إذا ما الدهْرُ أحدثَ نكْبَةً بألْـوث زَوَّار القَرائـب أَخْضَعَا

[الألوث: الثقيل المسترخي[١]]

٤٢ ـ ولا فَرِحاً إن كنتُ يوماً بِغبطَةٍ ولا جَزِعاً إنْ نَابَ دَهْرٌ فأَضْلَعَا

٤٣ ـ وقد غالَنِي ما غالَ قَيْساً ومالِكاً وعَمْـراً وجَوْنـاً بالمُشَقَّـرِ أَلْمَعَا[٢]

[المشقَّر: حصنٌ بالبحرين]

٤٤ ـ ومـا غال نَدْمَانَيْ يزيد[٣] وليتَنِي تَمَلَّيْتُهـم[٤] بالأهـل والمالِ أَجْمَعَا

تملَّيتهم: أي تمتَّعتُ بهم ملاوةً، وهي الحين.

٤٥ ـ فلو أنَّ ما أَلْقَى أصاب مُتَالِعاً أو الـرُّكْنَ مِنْ سَلْمـى إذاً لتضَعْضَعَا

[مُتالع: اسم مكان[٥]]

٤٦ ـ ألاَ أبْلِغَـا عَنّـى رياحـاً رسالةً وآلَ عُبَيد مِثْـلَ ذلِكَ أَوْدَعَا

٤٧ ـ أَلَمْ تـأْتِ أنباءُ المُحِـلّ سَرَاتَكم فيغضـب منكم كلُّ مَنْ كَانَ مُوجَعَا[٦]

(١) ليس في أ. وفى شرح المفضليات. الألوث: الضعيف. وواحد القرائب: قرابة. يقول: إن أصابتني مصيبة لم آت قرائبي أخضع لهم؛ حاجة مني إليهم، وفقْرا إلى ما عندهم؛ ولكنـي أتصبر وأعِفُّ في فقرى.

(٢) فى م: أحمعا. وفى المفضليات: وجزءا يدل: وجوناً، قال: وهؤلاء قتلهم الأسود بن المنذر يوم أُوراة. وقيس يربوعى، ومالك يعني اخاه، وعمرو يربوعى، وجزء بن سعـد رياحـى. وقوله: ألمع بهم الموت: ذهب بهم. وقال أبوعمرو: أراد معا. وحكى عن الكسائى انـه قال: أراد معاً أدخل الألف واللام. وغاله: ذهب به.

(٣) في الأمالي: يزيد: ابن عم له.

(٤) في ع: تمنيتُهم.

(٥) من أ. وفي هامش جـ: مُتَالع: هو الجبل المسمـى أبـان الأحمر على ضفة وادى الرمة غربي الرسّ بنحد. سلمى: الجبل العظيم المعروف، أحد جبلى طيىء.

(٦) من هنا إلى آخر القصيدة ليس فى م. وفى ع: سراتنا فيغضب منه كل ما كان. . . وفى شرح المفضليات: المحل: رجل مَرّ بمالك فلم يُوارِه.

٤٨ ـ بمشمَتِــه إذ صادفَ الهلكُ مالكا　　ومَشْهَــده ما قد رأى ثم ضَيَّعَا

٤٩ ـ أآثــرْتَ هِدْمــاً بالياً وسَوِيَّة　　وكنــت بهــا تَسْعَــى بَشِيــراً مُقَزَّعاً[1]

٥٠ ـ فلا تفرحَــنْ يومــاً بنَفْسِـك إنني　　أرَى الموتَ وقَّاعــاً على مَنْ تَوَقَّعَا[2]

٥١ ـ تركْتَ امْرءاً لو كان لَحْمُك عِندَه　　لآوَاهُ مجموعَــا لَهُ أَوْ مُمَزَّعَا[3]

٥٢ ـ فلا تَشمتَنْ واستَبْق نَفْسَك إنني　　أرى الموت وقاعــاً على من تَطَلَّعا

٥٣ ـ لعلك يومــاً أَنْ تِلـمَّ مُلِمَّةٌ　　عليكَ من اللائــي يَدَعْنَــك أَجْدَعا[4]

---

(١) الهدم: الكِسَاء الخَلق. والسوية: الحوية، أو مركب من مراكب النساء. ومقزّع: خفيف، وقزّع القوم رسولا: إذا أرسلوه. قال أبو جعفر: أُعطي المحلُّ سلب مالك ففرح به وأقبل راجعا.

(٢) فلا تمرحن: دعاء عليه. يقول: آثرت ثيابك ومركبك فنجوت وجئت تعدو بشيراً تُرى الناس أنك قد فزعْتَ لمقتله؛ وإنما ذلك شماتة منك وسرورٌ به.

(٣) ممزّع: ممزّق.

(٤) الأجدع: المقطوع الأنف. والأقطع: المقطوع الأذن.

متمم بن نويرة

حياته ومناسبة قصيدته :

هو متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد بن يربوع بن حنظلة .

دخل متمم الإسلام وحسن إسلامه فكان صحابياً جليلاً ملازماً للرسول(ﷺ) وصحابته رضوان الله عليهم ، وقد وضعه الرسول (ﷺ) على صدقات قومه وعندما توفي عليه السلام امتنع بنو حنظلة (قوم مالك ومتمم) عن دفع الزكاة وأداء الصدقات فوجه إليهم الخليفة أبو بكر رضي الله تعالى عنه ـ خالد بن الوليد فقتل منهم مقتلة عظيمة ومن بينهم مالك بن نويرة ثم تزوج خالد بامرأة مالك بعد مقتله .

وقد طلب متمم من أبي بكر أن يثأر له من ابن الوليد غير أن أبا بكر رفض طلبه ثم عاود متمم الطلب من ابن الخطاب فلم يستجب لطلبه أيضاً غير أنه عزل خالداً عن قيادة الجيش كما نعلم .

وقد أسر متمم في الجاهلية من قبل بني تغلب فذهب مالك لافتدائه من الأسر فلما رأى القوم شكله وحديثه وحسن بيانه أعجبوا به وأطلقوا سراح متمم دون فداء .

وقد اشتهر متمم بالرثاء خاصة في أخيه مالك فقد روي أنه عندما استشهد زيد ابن الخطاب يوم مسيلمة قال عمر بن الخطاب لمتمم أنشدني بعض ما قلت في مالك ، فأنشده ، فأعجب به عمر وتمنى أن يرثي زيد بن الخطاب بمثل هذا الشعر ، فقال له متمم :

يا أمير المؤمنين لو قتل أخي قتلة أخيك ما قلت فيه شعراً أبداً.

فقال عمر: يا متمم ما عزاني أحد في أخي باحسن مما عزيتني به.

وكان لمتمم ابنان شاعران خطيبان هما إبراهيم وداود ويرجح أن تكون وفاته سنة ٣٠ هـ/ ٦٥٠م.

الأفكار العامة في النص:

١ ـ من البيت ١ ـ ١٧: يتناول الشاعر صفات أخيه مالك مركزاً على صفتي الكرم والشجاعة.

٢ ـ من البيت ١٨ ـ ٢٩: يبكي الشاعر أخاه ويدعو لقبره وللأرض التي دفن بها، مع العودة لذكر صفاته، وذكره للأيام التي قضاها معه.

٣ ـ من البيت ٣٠ ـ ٤٥: معاتبته لزوجته التي لامته على حزنه الشديد مع تشبيه نفسه في مصابه بالنوق الفاقدة لصغارها. وفي أثناء ذلك يعتز بقومه في مواجهة المصائب.

٤ ـ من البيت ٤٦ ـ ٥٣: الحديث عن الشامتين لمقتل أخيه وخاصة المحل بن قدامة بن أسود بن أوس بن يربوع.

الشرح الأدبي:

١ ـ لعمري: قسم من الشاعر، التأبين: مدح الميت يقسم الشاعر متمم في هذا البيت بأنه لم يعتد البكاء أو الرثاء وأنه لم يخف ولم يضعف أمام المصاب الجلل الذي أصابه في فقد أخيه مالك بن نويرة.

٢ ـ غيّب: كفّن، المنهال: ابن عصمة الرياحي ألقى ثوبه على مالك أخي متمم بعد مقتله ليستر قتلته، غير مبطان العشيات: أي كان لا يأكل في آخر النهار انتظاراً للضيف، أروعاً: الذي يروعك بحسنه وجماله.

يقول: لقد كفن المنهال بن عصمة الرياحي أخاه مالكاً عندما مر به قتيلاً وقد كان مالك فتى كريماً في صفاته جميلاً في خلقته، ينتظر ضيفانه إلى آخر الليل كي يكرمهم ويطعمهم.

٣ ـ البرم: البخيل أو الذي لا ينزل مع الناس في المسير القشع: الجلد اليابس.

تقعقعاً: تقطعا أو تمزقا.

يقول الشاعر وهو يذكر صفات مالك بأن أخاه كان كريماً لا يعرف البخل حتى في أوقات الشدة والبرد الشديد لم تكن نساء الحي تعطي زوجته لحماً فهو الكريم في جميع الأوقات في حالة اليسر والعسر وفي الشدة والرخاء على حد سواء.

٤ ـ اللبيب: الذكي والحكيم، الخصيب: الكريم السخي أوضعا: إسرعا.

يزيد الشاعر في صفات أخيه مؤكداً على صفة الكرم التي يعتز بها العربي بأن أخاه كان يتصف بالعقل الراجع والصدر الواسع، والحكمة المتميزة، وقد أكسبته هذه الصفات سماحة في الخلق ورجاحة في العقل، كما أنه كان كريماً إذا ما أسرع إليه أي إنسان يطلب العون والمساعدة. وهذا يدل على أن منزل مالك كان قبلة المحتاجين، وموئل الضعفاء.

٥ ـ أغر: جميل ومشرق أو الفتى اليافع، الندى: الكرم لا زال الشاعر يتحدث عن صفة الكرم التي يتحلى بها مالك فيقول إذا احتاج أحد المساعدة والعون فإنه لا يجدها إلا عند مالك فهو دائماً مستعد للمساعدة كالسيف الحاد المستعد لدخول المعارك.

٦ ـ اجتزأ: فأزوا بالقداح، الأيسار: إشراف الحي ينحر لهم ويأكلون خاصة في أوقات الجدب.

ويقول أن أخاه مالكاً كان كريماً في جميع الأوقات حتى في أوقات الجدب واالقحط التي تصيب العرب.

فإذا ما فاز القوم بالقداح ونحرت لهم الجزور لإطعامهم كان مالك يكفي الجميع دون أن يأخذ لنفسه أو يخصها بشيء فلم يكن أنانياً وإنما كان همه

العشيرة ورجالها وخاصة في الأوقات العصيبة.

٧ ـ كظك: انتصر عليك وقطع كلامك وأسكت لسانك الخصم: للمفرد والجمع.

الأضرع: الضعيف.

يقول الشاعر أن من صفات أخيه مالك أنه كان ينصر الضعيف الذي لا يستطيع أن يقف في وجه الخصومة لضعفه وقلة شأنه، وفي الحال الذي ينصره مالك فلا يمكن لأحد بعدها أن يظلمه أو ينتصر عليه.

٨ ـ مثنى الأيادي: الذي يزيد عن الجزور أو الرجل الذي يأخذ قدحين. الممزع: المقطع، الفرث: حشوة الكرش في الجزور أو غيره.

يقول متمم أن فضائل ومكارم مالك على القوم كثيرة وأياديه عليهم مديدة فهو لم يحرص في أي وقت على أن يأخذ حصته من لحم الجزور قبل أن يأخذ أبناء العشيرة منه ما يحتاجون فهو حريص على مصلحة العشيرة وأبنائها قبل مصلحته ويقدم الآخرين عليه وكل ذلك من عفة نفسه وعزتها وعلو همته.

٩ ـ أذرت: رفعت وألفت، الكنيف: حظيرة الأبل أو الماشية المنزع: المرفوع (من نزع الشيء إذا رفعه وأزاله)

يدعو الشاعر متمم عينيه للمزيد من البكاء على مالك خاصة في أوقات الشدة التي يهب فيها الريح البارد ويذري معه الكنيف وذلك دلالة للشدة والقسوة التي تصيب العربَ ففي تلك الأيام العصيبة يحتاج القوم إلى الرجال أمثال مالك الذي يواسيهم ويساعدهم ويطعمهم ويقدم لهم ما يحتاجون إليه.

١٠ ـ الشرب: الجماعة الذين يشربون، البهمة: الشجاع أو جماعة الخيل يقول أيضاً مخاطباً عينيه: زيدي أيتها العيون في بكاء مالك ذلك الفارس الذي كان يخر لضيوفه ويسقيهم كما أبكيه لشجاعته وعلو همته.

١١ ـ الرغاء: صوت الناقة أو البعير وكان الضيف يرغي ناقته ليسمعها القوم فيدعونه إلى منازلهم لأطعامه ومساعدته.

العاني: الأسير، ثوى: مكث، القد: هو القيد من الجلد يقول متمم مخاطباً عينيه لأن تزيد في بكاء مالك بسبب مساعدته للضيف الذي يطرق بابه في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار كما زيدي في بكائه لأنه كان مساعداً ومعيناً للأسرى اللذين آلمهم القيد وأثر فيهم من طول أسرهم فالشاعر يشير إلى أن أخاه كان كريماً في معاملته للأسرى والضيوف وطالبي العون والمساعدة بشكل عام.

١٢ ـ الأشعت: ما كان شعره متلبداً، الحباري: طائر مشهور بضعفه يشير الشاعر متمم هنا إلى أن أخاه مالكاً ما كان يساعد الأرامل والضعفاء وكل من هو بحاجة إلى مساعدة كالأرملة التي فقدت معيلها كان يقوم على خدمتها وأطفالها الضعفاء الجوعى.

١٣ ـ المخذام: السريع القوي، الروع: المعركة، الداعي: داعي الحرب أو الغزو، فزعا: أخبر يقول متمم بأن أخاه مالكاً كان سريعاً في استجابته للحرب أو الغزو لا يتردد في القتال إذا ما أخبر به أو علم بموعده.

١٤ ـ وقافا: جباناً، الطائش: من لا تصيب سهامه، اللقاء: الحرب مروعاً: خائفاً من البيت السابق بدأ الشاعر يذكر صفات مالك في الحرب فقد وصفه بالسرعة في تلبية دعوة الحرب وهنا ينفي عنه صفة الخوف أو الجبن أو عدم المهارة في رميه للسهام بل أنه كان شجاعاً قوياً في أشد الأوقات وأصعب الحروب التي تحجم فيها الخيول القوية عن الحرب خوفاً من شدتها.

١٥ ـ الكهام: الكليل.(غير قاطع)، الحاسر: من ليس له سلاح المقنع: من له سلاح، ناكل: مبعدله يقول في ذكر صفات مالك في الحرب بأنه لم يكن ضعيفاً مع عدوه سواء أكان عدوه ولا بساً السلاح أم بدونه فقد كان مالك يهجم على عدوه ولا يحسب له أي حساب.

١٦ ـ السميدع: السيد الكريم.

يقول في وصفه في الحرب بأن الحرب إذا ما اشتـدت والتحـم الجيش وحمي الوطيس وجدت مالكاً يصدق في اللقاء في الحرب ويبلي فيها بلاء حسناً دون أن يتردد أو يتقاعس للحظة.

١٧ ـ الشرب: الجماعة، القاذورة والمتزبع: هو سيىء الخلق ومـن صفات مالك أيضاً أنه لم يكن سيء الخلـق إذا ما جلس القـوم في مجلس الشراب فلم يعتد على أحد من القوم بل يبقى رزيناً قوياً مالكاً لعقلـه وليس كالآخرين الذين يفقدون رزانتهم وعقلهم من كثرة الشراب.

١٨ ـ الآيات: هي الصفات والآثار الكريمة التي عددها الشاعر لأخيه الحبل: الصلة والعلاقة يقول الشاعر: إن المعالم والآثار والخصال الكريمة التي تركها مالك تذكرني دائماً به فألوذ بالصبـر لأحتمـي به من شدة الحـزن والألـم فكل صلة بعدك يا مالك مقطوعة.

١٩ ـ لقد كنت يا مالك رمزاً للاستجابة والوفاء والصدق إذا ما دعيت أو استجار واستعان بك أحد أما اليوم فإنك ميت لا تجيب أحداً.

٢٠ ـ السنا: ضوء البرق، الجون: السحاب الأسود المليء بالمطـر تريع: أصبح متردداً أو تريع بمعنى أخصب.

يقول متمم: إنني أذكر مالكاً وصفاته وأثاره وكلـي أمـل في أن ينـزل المطر الشديد لتصبح الأرض خصبة ومعشبة خاصة وأن تباشير الخير والمطر ظاهرة للعيان فالبرق يلمع والسحاب أسود دلالة قرب نزول المطر «المطر هو رمز الخير والبركة عند العرب» والعربي كثيراً ما كان يدعوا للقبـر أو للـديار بالسقيا والمطر.

٢١ ـ الشاعر هنا يدعوا لقبر مالك بأن ينزل عليه المطر كي تكثر البركة ويزيد الخير من حوله. المدجنات: السحاب الأسود.

٢٢ ـ القريتان: اسم موضع، الأجزاع: النواحي.

لا زال الشاعر يدعو بالبركة وبالمطر الذي يغمر الأرض والمناطق التي

حل بها قبر مالك ويعدد هذه المناطق المجاورة لقبر مالك مثل شارع، القريتين، وضلفع.

٢٣ ـ ترشح: تغذى، الوسمى: أول مطر يقع على الأرض، الخروع: اللين من النبت، الديمة: السحاب الممطرة.

كما يسأل الشاعر أن يزيد المطر وأن تختص تلك المناطق بسيل الواديين وبالمطر الذي يزيد من خير تلك الأرض ومن نباتها اللين الطري.

«لا زال الشاعر يدعو بالخير والبركة لقبر مالك وللأرض التي دفن بها».

٢٤ ـ بلقع: جرداء قاحلة يهدى الشاعر أخاه مالكاً تحياته رغم بعده عنه ورغم ما يفصله عنه من الأرض القاحلة الجرداء التي انتهى إليها قبر مالك.

٢٥ ـ بالرغم من أن الأيام والموت قد فرق ما بيني وبين أخي مالك فإن أخي مالك فارقني وودعني وهو يتحلى بأخلاق حميدة وصفات كريمة فهو كريم ومحمود في حياته وفي موته.

٢٦ ـ يعزى الشاعر نفسه في هذا البيت فيقول أن الموت حق على كل إنسان فقد مات من قبل أخي مالك ملوك الفرس وأكاسرتهم وعظماءهم وكذلك ملوك التبابعة من حمير دون أن يستطيع هؤلاء بما أوتوا من قوة أن يمنعوا الموت عن أنفسهم فلا غرو والحالة هذه أن يموت أخي بعد أن عشت وإياه في الخير والمسرة.

٢٧ ـ النديم: المسامر والمسلي للملك، جذيمة: هو جذيمة الأبرش وندماني جذيمة: هما مالك وعقيل من قضاعة نادماً جذيمة دهرا ثم قتلهما.

يقارن الشاعر هنا بين حاله مع أخيه وحال مالك وعقيل مع جذيمة فلقد عاش الجانبان معاً دهراً كله المحبة والسرور والوفاء ثم فرق بينهما الدهر فقتل مالك بن نويره، وقتل مالك وعقيل بعد دهر طويل فهكذا الدهر يفرق بين الأحبة ولا عجب في ذلك فالموت حق على كل الناس يتصدع:

يتعكر ويزول صفاؤه وتتبدل أحواله .

٢٨ ـ فعندما قتل مالك وابتعد عني ولفرط محبتي له وبسبب الحياة السعيدة التي قضيناها معاً طول تلك السنوات مرت بسرعة وكأنها ليلة واحدة لأن الأيام والسنوات الجملية تمضي بسرعة .

٢٩ ـ تمنع : امتنع عليه .

هنا يصف الشاعر متمم أخلاق مالك في السلم والحرب فهو في السلم وأمام نساء العشيرة يكون كله الحياء والأدب والأخلاق ، ولكنه في الحرب أشجع من الأسد إذا ما امتنع عليه فلا يمكن أن تصمد أمامه الصعاب مهما كانت .

٣٠ ـ الأفرع : وهو كثير شعر الرأس كناية عن الترف وحياة الرغد ابنة العمري : هي زوج متمم بن نويرة .

يشير الشاعر هنا إلى تبدل حاله من بعد موت أخيه وكيف تحول من الرغد والترف إلى الشحوب والضعف حتى أن زوجته لاحظت ذلك عليه وسألته عن السبب الذي بدل حاله وغير هيأته .

٣١ ـ فيجيبها عن سؤالها ذلك بقوله أن ما غير حالي هو الحزن الشديد الذي أصابني بفقد مالك هذا الألم والحزن الذي غير لون وجهي إلى السواد بعد أن كان نضراً ، السفعة : السواد الضارب إلى الحمرة .

٣٢ ـ تولوا : ماتوا متوالين وراء بعضهم بعضاً ، خلافهم : بعدهم استكين وأخضع : أضعف وأذل

يضيف الشاعر مجيباً زوجته على سؤالها أن سبب تغير حاله أيضاً هو فقد الأخوة في ساحة القتال وراء بعضهم بعضاً غير أنني لم أضعف ولن أذل وراءهم .

٣٣ ـ وإنما سأسير على نهجهم في الأقدام والشجاعة في ساحات القتال حتى في الأوقات التي يشتد فيه القتال ويتردد فيها الأقوياء ويضعفوا في مواجهة الأخطار .

الخطوب : الحروب والصعاب ، تضعضع : ضعف .

٣٤ ـ قعيدك : هو يمين وقسم خاص بالعرب ، تنكيء : تحركي ، القرح هو الجرح المندمل .

يستحلف الشاعر متمم زوجته بالله ألا تلومه لحزنه الشديد على مالك لأن لومها يحرك جرح قلبه فينفتح الجرح من جديد ويعود الألم إلى قلبه مرة أخرى ويوجعه .

٣٥ ـ حسبك : يكفيك ملامة لي ، جهدت : بذلت جهدي وطاقتي وما باستطاعتي ، مدفع : من دفع الشيء إذا دفعه وأبعده يخاطب الشاعر زوجته اللائمة له بقوله يكفيك ملامة لي فقد بذلت كل ما باستطاعتي من أجل دفع الموت وأبعاده عن أخي غير أنني وجدت الموت لا دافع له ولا راد له .

٣٦ ـ أظَار : جمع ظئر وهي الناقة الحنونة ، الوجد : شدة الشوق ، روائم : حنونة . المجر : هو أثر السحب والجر ، الحوار : ولد الناقة ، المصرع : الموت .

يقول الشاعر : إن ألمي بفقد أخي لا يقل عن الألم والحسرة عن تلك النوق الحنونة التي فقدت صغارها وفجأة وجدتها ميته ومجرورة أمامها فكيف بها وقد اعتصرها الألم والحزن والمرارة أن مصيبة تلك النوق : لا تقل عن مصيبتي في أخي بشيء أن لم تكن أعظم منها .

٣٧ ـ إن تلك النوق المصابة في صغارها تذكر الإنسان المصاب وتذكرني بمصيبتي في أخي ، فإذا بكت الناقة الأولى وتألمت وأظهرت حزنها شاركتها النوق الباقية في حزنها وبكائها .

٣٨ ـ الشجو : الحزن .

لا زال الشاعر يتحدث عن تلك النوق التي فقدت صغارها وما يتملكهن من حزن وألم دائمين ، فإذا ما قامت ناقة كبيرة مسنة وبدأت البكاء تردد حزنها وألمها في الليل فشاركها جميع النوق البكاء والألم .

٣٩ ـ إن تلك النوق في مصيبتها وشدة شوقها وحزنها وألمها لا تقل عن حزني وألمي في فقدان أخي خاصة عندما جاءوا بخبر مقتله، وسمع به الجميع هذا البيت استكمال لمعنى البيت (٣٦) وما وجد أظآر ـ . . . بأوجد مني . . .

٤٠ ـ هازلتني: الخطاب لزوجته والمهازلة المداعبة من أجل تخفيف المصاب ومحاولة نسيانه، الرزء المصيبة العظيمة.

يقول الشاعر متمم مخاطباً زوجته: مهما تفعلي من أجلي كي أنسى أو أخفف من مصابي فلا فائدة من مداعبتك فإن لي من المصائب والأحزان ما يبكي الإنسان المفجع الذي غمر الحزن قلبه حتى عاد لا يعرف البكاء.

٤١ ـ الألوث: الضعيف، القرائب: هم الأقارب جمع قريب أخضعا: من الخضوع والذلة، زوار: كثير الزيارة طلباً للحاجة والمساعدة.

ويضيف قائلاً لزوجه أنني لست ممن إذا أصيبوا بمصيبة فزعوا إلى أقاربهم طالبين المساعدة والعون فإنني لا يمكن أن أذل أو أن أخضع مهما أصابني من المصائب أو سوء الحال أو الفقر.

٤٢ ـ الغبطة: السرور والفرح، الجزع: الخائف، ناب: جاء بالنوائب وهي المصائب أضلع: بمعنى أجزع وأخاف.

ويقول لها أيضاً: إنك إن رأيتني في يوم من الأيام فرحاً فليس معنى ذلك أنني مسرور كما أنني لست جزعاً أو خائفاً إذا ما أصابني الدهر بمصيبة فإنني أصبر وأواجه الصعاب ولا أذل واستسلم للدهر ومصائبه.

٤٣ ـ غال: أهلك، قيس وعمرو وجون أو جزءهم من بني يربوع قوم الشاعر، أما مالك فهو أخوه، المعا: أي معا وقد أدخل عليها الألف واللام وهي لغة أو أنها من ألمع بهم الموت: أي ذهب بهم جميعاً.

يقول الشاعر مخاطباً زوجته أن ما أهلكني وآلمني هو مقتل إخوتي وأبناء عمومتي هؤلاء الذين قتلهم الأسود بن المنذر يوم أواره في حصن المشقر بالبحرين فإن مصابي بفقدهم عظيم وجلل لا يمكن احتماله.

٤٤ ـ يزيد: ابن عم الشاعر كان نديمه ومجالسه، ويضيف الشاعر إلى ما سبق وإلى ما أثر فيه وألمه وأحزنه بالإضافة إلى مقتل قيس وعمرو ومالك وجزء ـ مقتل يزيداً أيضاً وهو نديمة وابن عمه وهذا يعني أنه لم يبقى له من الندماء أو الأصدقاء شيئاً لكي يستعين بهم على الدهر ومصائبه فهو حزين ووحيد.

٤٥ ـ فلو أن ما أصابني من الدهر نزل على (متالع) أو على جبل سلمى وركنة المتين لما استطاع ذلك الجبل أن يحتمل ما نزل بالشاعر من مصائب وكوارث.

والمتالع: جبل على ضفة وادي الرمة بنجد.

وسلمى جبل عظيم وهو أحد جبال طيىء.

٤٦ ـ رياح وآل عبيد: من قوم الشاعر: يريد الشاعر أن يبلغ قومه رسالة بخصوص مقتل مالك وهذه الرسالة تتضمن لوما وتوبيخاً لهم لموقفهم من مقتل مالك فلم يهبوا لمساعدته ونصرته.

٤٧ ـ المحل: رجل من بني يربوع مرَّ بمالك مقتولاً فلم يواره وكأنه به شامت. يقول الشعار موجهاً كلامه إلى رياح وآل عبيد فيقول لهم ألم تسمعوا أو تعرفوا بما فعله المحل بمالك فلماذا لم تغضبوا لمثل هذا العمل المشين الذي يدل على تشفي المحل بمقتل مالك ولماذا لم يغضب على هذا العمل من كان متألماً لمقتل مالك أو لمقتل عزيز عليه فهذا ليس من شيم الكرام ولن ترضى عليه العرب.

٤٨ ـ ويضيف قائلاً: ألم تغضبوا بسبب شماتة المحل بمقتل مالك وعدم مواراته ودفنه وقد وجده قتيلاً غير أنه تركه دون أن يفعل شيىء.

لقد كان جديراً بقادتكم وسراتكم أن يغضبوا لهذه الفعلة الشنيعة من المحل. الهلك: الموت، صنيع: تركه ولم يأبه به.

٤٩ ـ الهدم والسوية: الثوب البالي الخشن، مقزع: خفيف سريع بشير: مبشر وفرح بمقتله.

يقول الشاعر مخاطباً المحل: هل عزت عليك ثيابك البالية الخشنة حتى تركت مالكاً دون أن تواريه بها وجئت مسرعاً بخبر وفاته شامتاً متشفياً.

أوهل اكتفيت يا محل بثياب مالك التي سلبتها عنه بعد مقتله وهربت بها لتعلم القوم بخبرك المشؤوم.

(يقال بأن المحل أعطي سلب مالك بعد مقتله ففرح به وأقبل راجعاً بسرعة).

٥٠ ـ وقاعاً: نازلاً، توقعاً: أي توقع وأحب الموت لغيره يقول: لا تفرح يا محل لمقتل مالك فإن الموت حق وسينزل بك أن آجلاً وأن عاجلاً فمن يتوقع أو يعمل السوء بالآخرين لا بد وأن يقع به في النهاية.

٥١ ـ الممزع: الممزق، آواه: ستره وحافظ عليه.

يخاطب متمم المحل بقوله: إن الذي تركته دون أن تستره أو تدفنه كان دائماً النصير والمساعد للضعفاء والمساكين والمحتاجين كيف لا وهو فارس قومه وسيدها فلو وجدك يا محل مقتولاً لحافظ عليك وسترك ولو طلبت إليه المساعدة واحتميت به لنصرك وساعدك على عدوك.

٥٢ ـ فلا تشمت يا محل بمقتل مالك لأن الموت سيحل بك أينما كنت فالموت نازل بكل من يتطلع إلى غيره ويتمنى لهم الشر.

استبق نفسك: أي تمهل وانتظر الموت، وقاعاً: أي واقعاً ونازلاً، تطلعاً يتطلع إلى غيره ويحسده ويتمنى له الشر.

٥٣ ـ تلم: تنزل بك، الملمة: المصيبة الكبيرة، الأجدع: من جدع أي قطع أنفه أو أذنه.

يرجو الشاعر أن تنزل بالمحل نازلة عظيمة تجعله عبرة للآخرين الذين يشمتون بالموتى ولا يوفون الميت حقه من الدفن والستر.

الدراسة الفنية:

بعد أن انتهينا من الدراسة الأدبية لمرثية متمم بن نويرة في أخيه مالك لا

بدلنا من الدراسة الفنية لها لنتعرف على نواحي الأبداع والجمال الفني فيها.

١ - العاطفة:

جاءت عاطفة الشاعر في رثائه لأخيه على النحو التالي.

أ - عاطفة صادقة وصحيحة فهي تعكس لنا مدى حب الشاعر لأخيا وحزنه لفراقه فهي عاطفة سوية لا شذوذ فيها ولم يخرج الشاعر فيها على المألوف. فهي عاطفة الأخوة الصادقة.

ب - جاءت عاطفته فردية ولم تكن إسلامية ذلك أن الشاعر قصر عاطفته على أخيه وفي نطاق عشيرته فقط فلم يتعد بها إلى المجتمع الإسلامي ومصلحته ولذلك لم تكن عاطفة إسلامية وهذا يعني أن عاطفة الأخوة عند الشاعر قد تغلبت على عاطفته الإسلامية مما يجعلنا نقلل من تمكن العقيدة الإسلامية في نفس الشاعر الذي انحصر في أفق القبيلة والعشيرة وقصر همه على الوفاء لأخيه القتيل.

٢ - أسلوبه:

تميز أسلوب الشاعر بما يلي:

أ - القوة والمتانه والصلابة وقد ساعده في ذلك لفظه ومعناه فقد جاءت هذه وكأنها منتزعة من صميم البيئة الجاهلية البدوية الخشنة مما جعل قصيدته متراصة ومتكاملة لا تكلف فيها.

ب - كذلك جاءت ألفاظ الشعر عربية فصيحة تخلو من أي ضعف أو ركاكة كذلك جاءت حروفه قوية لتصور لناشدة الكارثة وعظم المصيبة التي حلت بالشاعر ولتبعث في القصيدة جو القوة الذي يسند الأسلوب ويقويا ويزيد من متانته ورونقه.

ج - ابتعد الشاعر في قصيدته عن كل ما يسيء إليها فلم يكثر من المحسنات البديعية بل إن ما جاء منها كان عفو الخاطر دون استكراه كما أنه لم يلجأ إلى أسلوب التقديم والتأخير أو الجمل المعترضة الذي يقلل من

فصاحة وبلاغة النص وهذا إن دل على شيىء فإنما يدل على مدى تمكن الشاعر وقوته وامتلاكه للغة وأساليبها.

٣ ـ الخيال:

لعل أبرز شيىء كان في قصيدته هو أسلوبه وخياله أما الخيال فجاء محلقاً متنوعاً وقد ساعدته البيئة الجاهلية البدوية على ذلك كثيراً حيث نرى أن جميع الصور التي جاء بها كانت منتزعة من تلك البيئة وكأن شاعرنا لم يتأثر بالبيئة الإسلامية التي يوجد بها.

ولذلك يمكننا القول أن خياله جاء بدوياً صافياً سهلاً بعيداً عن التعقيد أو التلكف بل أنه كان ناجحاً إلى حد بعيد في رسم الصور المعبرة عن معانيه العقلية الأمر الذي يجعل القارىء مشاركاً له في مصابه ومتفهما لعظم هذه المصيبة وأثرها في نفسه ومما زاد من هذا الأثر هو الموسيقى العذبة التي استعملها الشاعر في قصيدته فقد استغل تفعيلات البحر الطويل أحسن استغلال بحيث جعلها تعبر عما يجول في صدره من شوق وحب ووفاء لأخيه ومن حقد دفين على الشاميتين بمقتله ومن اعتزاز وفخر بصفاته وخصاله.

الفصل الثاني

مِنَ الشّعْرِ الإسْلَامِي

قصِيدَة حسّان بن ثَابت

خصائص الشعر في العصر الإسلامي

١ ـ من حيث اللفظ والمعنى :

أ ـ اختفت من الشعر في هذا العصر الألفاظ والمعاني الجاهلية التي لا تتفق وتعاليم الإسلام وخاصة ما يتعلق منها بالعصبية والغزل والخمر والثأر والغارة إلى غير ذلك من تقاليد الجاهلية .

ب ـ كما أن ألفاظ الشعر الإسلامي لم تكن معقدة وغريبة كما هو الحال في الشعر الجاهلي ولذلك ابتعدت معاني وألفاظ الشعر الإسلامي عن الصعوبة والوعورة والخشونة الجاهلية .

جـ ـ كما ظهرت في هذا العصر الألفاظ والمعاني المقتبسة من القرآن الكريم والحديث الشريف .

٢ ـ من حيث الأسلوب :

لم يكن أسلوب الشعر في هذا العصر بنفس القوة التي كان عليها أسلوب الشعر الجاهلي وذلك لأن الشاعر الإسلامي كان عليه أن يختار لفظه ومعناه وفق تعاليم الإسلام بينما هو في الجاهلية يختار ما يحلو له ويقول الشعر على سليقته دون قيود أو موانع كما أن هناك مجموعة من الأسباب التي أدت إلى هبوط مستوى الشعر في هذا العصر بالمقارنة في العصر الجاهلي أهمها :

أ ـ عزوف الشعراء عن قول الشعر خاصة بعد نزول قوله تعالى **﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . . . ﴾** .

ب ـ ابتعاد الشعراء عن قول الشعر وتفرغهم إلى الجهاد في سبيل الدعوة الإسلامية خاصة مع بداية تأسيس الدولة الإسلامية.

جـ ـ تحذير الرسول (ص) للناس من قول الشعر والإكثار منه كقوله (ص) «لئن يمتلىء فم أحدكم قيحاً خيراً من أن يقول شعراً».

د ـ إن المشركين قد اتهموا النبي (ص) بقولهم ما هو إلا شاعر فليس لإنسان أن يتخذ مهنة افترى المشركون بها على رسول الله (ص).

هـ ـ إن الشعر نكد وبابه الشر فإذا دخل باب الخير ضعف كما يقول الأصمعي وهذا يعني أن الشعر ينمو ويزدهر مع الشر والغارات والغزوات وحروب العرب أما وقد جاء الإسلام وأخذ كل حقه وعرف كل واجبه وحل الخير مكان الشر فليس للشعر في هذه البيئة أي ازدهار ولم تتوافر له عوامل القوة ولذلك تغلبت عليه الخطابة وتقدمت عليه لحاجة الجند المجاهدين إليها وحاجة المصلين إليها في أيام الجمع والمناسبات.

و ـ إن الشاعر المسلم يخضع في نظمه للشعر للعديد من القيود في اللفظ والمعنى والأغراض وليس ذلك عند الشاعر الجاهلي الذي ينطلق على سجيته وطبعه وشتان بين شعر الصنعة وشعر الطبع.

٣ ـ من حيث العاطفة:

كانت عاطفة الشاعر الإسلامي في أغلب الأحيان صادقة لا تكلف فيها ولا كذب ولا رياء وذلك لأن تعاليم الإسلام تنص على ذلك.

كما أن عاطفة الشاعر الجاهلي كانت صادقة لأن العربي ينطلق من طبعه السليم الذي لا يعرف الرياء أو الكذب.

٤ ـ من حيث الأغراض الشعرية:

ظهرت في هذا الشعر أغراض شعرية جديدة واختفت أغراض شعرية قديمة حيث ظهر في هذا العصر شعر الجهاد الذي يمجد الشهادة ويدعو إلى التضحية والفداء كما ظهر شعر الدعوة الإسلامية الذي يدعو إلى الإسلام

وتعريف الناس بتعاليمه وكذلك شعر المدائح النبوية الشريفة واختفى شعر الغزل والتفاخر والهجاء وقصة عمر مع الحطيئة معروفة بالإضافة إلى أن أغراض الشعر جميعها كانت ملتزمة في ألفاظها ومعانيها بتعاليم الإسلام وقواعده القويمة فمن قال شعراً لا يقول إلا صدقاً أو ليصمت.

حسان بن ثابت
يرثي الرسول ﷺ

وقال حسان بن ثابت يبكي رسول الله ﷺ فيما حدثنا ابن هشام، عن أبي زيد الأنصاري:

١ - بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد[١]

٢ - ولا تنمحي الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد

٣ - وواضح آثار وباقي معالم ورَبع له فيه مُصلى ومسجد

٤ - بها حجرات كان ينزل وسطها من الله نور يستضاء ويوقد

٥ - معارف لم تطمس على العهد آيها أتاها البلى فالآى منها تجدد

٦ - عرفت بها رسم الرسول وعهده وقبراً بها واراه في الترب ملحد

٧ - ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت عيون ومثلاها من الجفن تُسعد[٢]

٨ - يذكرن آلاء الرسول وما أرى لها محصيا نفسي فنفسي تبلد

٩ - مفجعة قد شفها فقد أحمد فظلت لآلاء الرسول تعدد[٣]

١٠ - وما بلغت من كل أمر عشيره ولكن لنفسي بعدُ ما قد توجَّد[٤]

١١ - أطالت وقوفاً تذرف العين جُهدها على طلل القبر الذي فيه أحمد

١٢ - فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد

---

(١) الرسم: ما بقي من آثار الديار. تعفو: تدرس، تهمد: تبلى.

(٢) أسعدت: أعانت.

(٣) شفها: أضعفها.

(٤) عشيره: عُشره. توجد: من الوجد وهو الحزن.

١٣ ـ وبورك لحد منك ضمن طيبا ... عليه بناء من صفيح منضد[١]
١٤ ـ تهيل عليه الترب أيد وأعين ... عليه وقد غارت بذلك أسعد
١٥ ـ لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة ... عشية علوه الثرى لا يوسد
١٦ ـ وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
١٧ ـ يبكون من تبكي السموات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
١٨ ـ وهل عدلت يوماً رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد؟!
١٩ ـ تقطع فيه منزل الوحي عنهم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد[٢]
٢٠ ـ يدل على الرحمن من يقتدي به ... وينقذ من هول الخزايا ويرشد
٢١ ـ إمام لهم يهديهم الحق جاهداً ... معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
٢٢ ـ عفو عن الزلات يقبل عذرهم ... وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
٢٣ ـ وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله ... فمن عنده تيسير ما يتشدد
٢٤ ـ فبينا هم في نعمة الله بينهم ... دليل به نهج الطريقة يقصد
٢٥ ـ عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
٢٦ ـ عطوف عليهم لا يثني جناحه ... إلى كنف يحنو عليهم ويمهَد[٣]
٢٧ ـ فبينا هم في ذلك النور إذ غدا ... إلى نورهم سهم من الموت مُقصد[٤]
٢٨ ـ فأصبح محموداً إلى الله راجعاً ... يبكيه حتى المرسلات ويحمد[٥]
٢٩ ـ وأمست بلاد الحرم وحشاً بقاعها ... لغيبة ما كانت من الوحي تعهد
٣٠ ـ قفاراً سوى معمورة اللحد ضافها ... فقيد يبكيه بلاط وغرقد[٦]
٣١ ـ ومسجده فالموحشات لفقده ... خلاء له فيه مقام ومقعد
٣٢ ـ وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت ... ديار وعرصات وربع ومولد

---

(١) الصفيح: الحجارة. منضد: بعضه فوق بعض.
(٢) يغور: من الغور وهو ما انخفض من الأرض وينجد من النجد وهو ما ارتفع من الأرض.
(٣) الكنف: الجانب.
(٤) مقصد: مصيب: اسم فاعل من أقصد.
(٥) المرسلات: الملائكة.
(٦) ضافها: نزل بها. البلاط: ما استوى من الأرض: الغرقد: شجر.

٣٣ ـ فبكي رسول الله يا عين عبرة　　ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
٣٤ ـ ومالك لا تبكين ذا النعمة التي　　على الناس منها سابغ يتغمد
٣٥ ـ فجودي عليه بالدموع وأعولي　　لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد
٣٦ ـ وما فقد الماضون مثل محمد　　ولا مثله حتى القيامة يفقد
٣٧ ـ أعف وأوفى ذمة بعد ذمة　　وأقرب منه نائلاً لا يُنكد(١)
٣٨ ـ وأبذل منه للطريف وتالد　　إذا ضن معطاء بما كان يتلد(٢)
٣٩ ـ وأكرم صيتاً في البيوت إذا انتمى　　وأكرم جداً أبطحيا يسود(٣)
٤٠ ـ وأمنع ذروات وأثبت في العلا　　دعائم عز شاهقات تشيد(٤)
٤١ ـ وأثبت فرعاً في الفروع ومنبتاً　　وعوداً غذاه المزن فالعود أغيد(٥)
٤٢ ـ رباه وليداً فاستتم تمامه　　على أكرم الخيرات رب ممجد
٤٣ ـ تناهت وصاة المسلمين بكفه　　فلا العلم محبوس ولا الرأي يفند(٦)
٤٤ ـ أقول ولا يلقى لقولي عائب　　من الناس إلا عازب العقل مبعد(٧)
٤٥ ـ وليس هواي نازعاً عن ثنائه　　لعلي به في جنة الخلد أخلد
٤٦ ـ مع المصطفى أرجو بذاك جواره　　وفي نيل ذاك ، اليوم أسعى وأجهد

---

(١) لا ينكد: لا يكدر.
(٢) الطريف: ما استحدث من المال التالد: المال الموروث. يتلد: يكتسب قديماً.
(٣) الصيت: الذكر الحسن. الأبطحي: المنسرب إلى أبطح مكة.
(٤) الذروات: الأعالي.
(٥) المزن: السحاب. أغيد ناعم.
(٦) يفند: يخطأ.
(٧) عازب العقل: بعيد العقل غائبه.

حسان بن ثابت الأنصاري
(٦٠ ق. هـ - ٥٤ هـ، ٥٦٣ م - ٦٧٤)

اسمه ونسبه :

هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر من بني مالك بن عمرو بن الخزرج ، وأمه الفريعة بنت خالد من الخزرج كان أبوه ثابت وجده المنذر من أشراف قومهم وحكام بيت الأوس ، والخزرج ؛ وكان جده المنذر خاصة عظيم الكرم محباً للسلم وليس أدل على ذلك ما كان من تحمله لديّات قتلى الأوس بعد يوم سميحة[1] بين الأوس والخزرج .

ولحسان العديد من الأبناء أشهرهم عبد الرحمن الراوي الثقة لشعر والده .

مولده ووفاته :

أرجح الآراء أنه ولد سنة ٦٠ ق. هـ/ ٥٦٣ م ونشأ شاعراً يتكسب بشعره ويتنقل بين بلاط جلق والحيرة وكان إلى الغساسنة أميل بحيث استمر وصلهم له بالجوائز والهبات حتى بعد إسلامه وعزوفه عن مدحهم . وقد توفي بعد أن كف بصره سنة ٥٤ هـ/ ٦٧٤ م.

إسلامه :

أسلم حسان مبكراً منذ أن هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة وانقطع للرسول (ص) ومدحه ورد هجاء المشركين عنه من أمثال عبدالله بن الزبعري

(١) سميحه : إسم بئر قرب المدينة .

وغيره، ولم يشهد حسان مع الرسول (ص) الغزوات لانقطاع اكحل يده في إحدى الغزوات على رأي البعض أو لجبنه على رأي البعض الآخر.

* ـ كان حسان عثماني الهوى ولذلك نراه بعد مقتل عثمان يقول مهدداً

لتسمعـن وشيكاً في ديارهـم   الله أكبـر يا تـارات عثمانـا

* ـ كما كان حسان ممن خاضوا في حديث الأفك وممن اتهموا السيدة عائشة في السنة (٥ هـ/ ٦٢٦ م) ولكنه اعتذر عن اتهامه لها بقوله:

حَصـان رزان ما تـزن بريبةٍ   وتصبح غرثـى من لحـوم الغوافل[١]

شعره:

كان حسان لسان قبيلة الخـزرج حيث برع في شعـر المـديح والشعـر القبلي واعتبر من فحول الشعراء فهو كثير الشعر جيده وهو أشعر أهل المدر[٢].

غير أنه في الجاهلية أشعر منه في الإسلام وعلل الأصمعي ذلك بقوله:

«الشعر نكد بابه الشعر فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره».

وقال أيضاً «شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه في الإسلام».

وقد وقف حسـان مديحـه علـى الرسـول (ﷺ) وقصـر هجـاءه علـى المشركين الذين كانوا يتعرضون له عليه السلام.

واكتسب شعر حسان في الإسلام الكثير من العذوبة والصفاء والسلاسة لكثرة التعابير الإسلامية والاقتباس من القرآن الكريم وحسان أول من بدء في شعر المدائح النبوية ومدائحه من جيد شعره في الجاهلية والإسلام حيث كانت

(١) حصان وزران: محصنة وشريفة ورزينة وقورة.
غرثى: دقيقة الخصر ولا تمد لسانها إلى أحد.
(٢) المدر: الحضر، المدن.

على الطراز القديم الذي يحفل بالتضخيم والتعظيم والألفاظ الصعبة والنغمة العالية الحادة.

ومع مجيء الإسلام كان حسان قد تقدم به السن فاصبح متسرعاً في النظم لا يخلو شعره في هذه الفترة من الاضطراب والتقلب السريع بين الموضوعات مما يحول بينه وبين التعمق ويوقعه في الضعف في كثير من الأحيان.

وبالإجمال فإن حسان هو شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر الرسول في عهد النبوة وشاعر اليمن في الإسلام. له ديوان شعر أكثره في الهجاء وبعضه في مدح النبي (ﷺ) والفخر بالأنصار ومدح الغساسنة والنعمان بن المنذر وفيه وصف للخمر ومجالس اللهو ونستطيع القول أن حسان بن ثابت في حياته وشعره يمثل لنا التغير الجذري الذي طرأ على المجتمع وعلى الشعر بشكل خاص فيما بين الجاهلية والإسلام.

المناسبة :

قال حسان بن ثابت هذه القصيدة في رثاء الرسول ﷺ عند وفاته، وقد تعرض حسان من خلال هذه القصيدة إلى آثاره عليه السلام بالمدينة المنورة، وذكر صفاته وشمائله عليه السلام كما وصف حال المسلمين بعد وفاته.

الأفكار الرئيسية :

١ ـ الفكرة الأولى من بيت ١ ـ ٦ وقفة طللية تحدث فيها الشاعر عن آثار الرسول (ﷺ) في المدينة المنورة.

٢ ـ الفكرة الثانية من البيت ٧ ـ ١٩ وصف حال المسلمين بعد وفاته عليه السلام وما كانوا عليه من ألم وحزن وبكاء لفقده عليه السلام.

٣ ـ الفكرة الثالثة من البيت ٢٠ ـ ٣٨ ذكر صفات النبي عليه السلام وما شمل به المسلمين من نعم وفضائل لا تحصى ووصف أثر رسالته عليه السلام

وأهميتها في بناء المجتمع الإسلامي السليم.

٤ ـ الفكرة الرابعة من البيت ٣٩ ـ ٤٣ مدح نسب الرسول عليه السلام والإشادة بآل البيت الهاشمي وتقدمه على غيره من البيوتات في قريش مع إبراز المكانة الرفيعة التي كان عليها قومه عليه السلام.

٥ ـ الفكرة الخامسة من البيت ٤٤ ـ ٤٦ يكشف فيها الشاعر عن أمنيته وهدفه وغايته من هذا المديح وهي نيل الجنة والرضوان إلى جانب المصطفى عليه السلام.

الشرح : ـ

١ ـ طيبة : المدينة المنورة، مدينة الرسول (ﷺ)، الرسم والعهود : هو الأثر تعفو وتهمد : تزول وتندثر.

يقول حسان : إن بالمدينة المنورة آثار باقية ومنيرة للرسول (ﷺ) وبالرغم أن الآثار تزول وتندثر مع مرور الزمن إلا أن آثاره عليه السلام بالمدينة باقية خالدة يشع منها نور الإسلام والرسالة المحمدية الخالدة.

٢ ـ تنمحي : تزول، الآيات : العلامات والعبر والعظات.

يذكر الشاعر هنا السبب في عدم زوال آثار الرسول (ﷺ) فيقول بأن تلك الآثار وهي مسجده عليه السلام والمنبر الذي كان يصعد عليه عليه السلام ليخطب في الناس ويعلمهم أمور دينهم لا يمكن لتلك الآثار المشعة بالنور أن تندثر وتزول مهما مر عليها من زمن.

٣ ـ المعالم : الآثار الباقية، الربع : الجماعة والصحبة، يقول الشاعر وستبقى آثاره عليه السلام واضحة وماثلة للعيان وسيبقى مسجده ومصلاه عليه السلام ليستفيد منه المسلمون ويتعظون به في كل زمان ومكان.

٤ ـ بها : أي بالمدينة المنورة، الحجرات : هي حجرات زوجاته عليه السلام، النور : هو الرسالة التي كانت تنزل على قلب رسول الله من لدن الله تعالى بواسطة أمين الوحي جبريل.

يشير الشاعر إلى أن بالمدينة أيضاً علاوة على مسجد الرسول (ﷺ) وما فيه من المنبر والمصلى يوجد أيضاً بالمدينة حجرات زوجاته عليه السلام حيث كانت تنزل عليه الرسالة وهي كالنور الذي يهدي الحائرين ويرشد التائهين.

٥ ـ معارف: أي آثار، تطمس: تزول، على العهد: أي بمرور الزمن، آيها: آياتها أي عبرها وعظاتها، البلى: البلاء والخراب الناتج عن تقدم الزمن.

يقول: إن تلك الآثار والمعالم التي تركها الرسول (ﷺ) لا يمكن أن تزول أو تندثر لأن الآيات والعظات والتعاليم التي جاء بها الرسول (ﷺ) تبعث فيها الحياة من جديد وتجددها كل عام وهذا إشارة إلى الحجيج الذين يقصدون مكة والمدينة في كل حين فيبعثون فيها الحياة الإسلامية وكأن الرسول (ﷺ) بينهم.

٦ ـ ملحد: هو من يضع الميت في اللحد، واللحد هو أحد أجزاء القبر يشير حسان هنا إلى أنه قد رافق النبي عليه السلام من أول يوم هاجر فيه إلى المدينة وحتى وفاته عليه السلام ووضعه في اللحد ولذلك لقب حسان بشاعر الرسول (ﷺ) بسبب هذه الملازمة والمرافقة الطويلة.

٧ ـ أسعدت: أعانت أو جف الدمع منها، بها: أي بالمدينة المنورة.

يشير هنا إلى حاله وحال المسلمين بعد فقد النبي (ﷺ) فيقول أنني بقيت أبكي النبي عليه السلام حتى جف الدمع من عيني ومثلا عيوني هناك عيون أخرى كثيرة جف الدمع منها ألا وهي عيون المسلمين كافة.

٨ ـ قوله تذكر بحذف إحدى التاءين: أي تتذكر والفاعل كلمة نفس.

وقوله تبلد إنما هو تتبلد بحذف إحدى التائين كذلك، وتتبلد: أي تلحقها حيرة، والتبلد أيضاً نقيض التجلد وهو استكانة وخشوع، الآء: نعم.

يقول: أن نفسه تحاول أن تذكر النعم التي اسبغها الرسول ﷺ عليها فتجد أنه من المتعذر عليها عدها أو الاحاطة بها، مما جعلها في حيرة من أمرها أو جعلها تخشع وتستكين.

٩ ـ ١٠ ـ مفجعة: موجعة، والفاجعة الرزية الموجعة التي تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أو إنسان عزيز. شفه الحزن والهم: لذع قلبه واضمره وأهزله حتى رق من قولهم شف الثوب إذا رق حتى يصف جلد لابسه.

تعدد: مضارع عد. العشير: العشر.

يقول: أن وفاة الرسول (ﷺ) قد اوجعت نفسه وأهزلت جسمه، وجعلته يواصل تعداد النعم التي أنعم بها عليه، وأنه لم يستطع أن يعد ما يساوي عشرها، نظراً لكثرتها وتعدد نواحيها. وهو قد فعل ذلك من باب الحمد والعرفان بالجميل.

١١ ـ تذرف العين: تسيل بالدمع. جهدها: طاقتها. الطلل: ما شخص من الآثار.

يقول: لقد أطلت الوقوف عند قبر الرسول (ﷺ) وعيناي تجودان بكل ما تسمح به طاقتهما من الدموع حزناً عليه.

١٢ ـ ١٣ ـ ثوى: أقام واستقر، المسدد: يقال سدده الله وفقه للسداد وهو الصواب والقصد من القول والعمل. الصفيح: الحجر الرقيق العريض البناء المنضد: ما رصف وجعل بعضه على بعض. ضمن طيبا: احتوى على جثمان إنسان طيب وهو جثمان الرسول (ﷺ).

يدعو الشاعر أن يبارك الله القبر الذي ضم جثمان الرسول الطاهر والبلاد التي يوجد فيها هذا القبر، ويقول بأن الرسول (ﷺ) كان يرشد الناس إلى الحق، ويسدد خطاهم على طريق الخير، ويصف قبره بأنه مبني من الحجارة العريضة التي صف بعضها فوق بعض.

١٤ ـ تهيل: تصب. وقد غارت بذلك أسعد: وقد غاب بغيابه صلوات الله عليه اليمن والبركة أو غاب بغيابه سعود النجوم (أسعد: جمع سعد أحد سعود النجوم). يقول في الوقت الذي كانت الأيدي تهيل التراب على قبره ﷺ، كانت العيون تنهمر بالدمع حزناً عليه. ذلك لأن المسلمين قد فقدوا بفقده طالع السعد.

١٥ ـ ١٦ ـ علوه الثرى: غطوه بالتراب، لا يوسد: لا يوضع تحت رأسه وسادة أي مخدة. وهنت: ضعفت وفترت من أثر الحزن، ظهور واعضد: كناية عن القوة، علماً وحلماً ورحمة: هي صفاته عليه السلام، راحوا: أي عادوا من على قبره عليه السلام. يقول: إن المسلمين قد دفنوا مع جثمانه الطاهر تلك الصفات الطيبة التي كان يتحلى بها وهي الحلم والعلم والرحمة، وعادوا إلى بيوتهم وقد أوهن احساسهم بفقد نبيهم ظهورهم وسواعدهم. «قول الشاعر إن المسلمين قد دفنوا معه عليه السلام صفاته أو ما كان يتصف به عليه السلام قول فيه خطأ».

١٧ ـ أكمد: احزن من الكمد وهو الحزن، يبكون: صيغة مبالغة أي يبكون بشدة يومه: أي اليوم الذي قضى فيه.

يقول: أنهم أخذوا يبكون النبي (ﷺ) الذي بكت يوم وفاته الملائكة في السماء والناس على الأرض، ويؤكد بأن الناس جميعاً كانوا في أشد حالات الحزن عليه.

١٨ ـ عدلت: ساوت. رزية: مصيبة. هالك: ميت.

يقول: ما ساوت يوماً مصيبة ميت كائناً من كان مصيبة يوم توفي فيه سيدنا رسول الله .

١٩ ـ يغور ويغير: يبلغ الغور وهو المنخفض من الأرض أي يختفي، وينجد: يبلغ النجد وهو المرتفع من الأرض والمراد يعم جميع الأمكنة.

يقول: لقد توقف نزول الوحي بوفاة النبي(ﷺ) في ذلك اليوم، وقد كان النبي بفضل ما يوحى إليه ذا رسالة سماوية خالدة تشيع الهداية في الأمكنة، وهذا ما جعل ذلك اليوم من أشد الأيام على المسلمين ولا يعدله شيء.

٢٠ ـ يدل: يرشد. الهول: الفزع الشديد، الرعب، الخزايا: الأعمال الجاهلية الذميمة.

يقول: كان الرسول ﷺ يرشد من يتبعه إلى الحق سبحانه وتعالى

وينقذه من عاقبة الكفر والضلال، أي الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة فمن يقتدي به عليه السلام يعرفه إلى خالقه ويباعد ما بينه وبين الأعمال الذميمة ويضمن له السعادة في الدارين.

٢١ ـ إن الرسول ﷺ كان بمثابة معلم لهم، يبذل قصارى جهده في هدايتهم إلى أتباع الحق، وهو معلم صدق وتتوقف سعادتهم في الدارين على طاعتهم له وسيرهم على نهجه فهو الإمام والمرشد لهم والأدرى بمصالحهم، والأحرص على حياتهم.

٢٢ ـ عفو: صيغة مبالغة أي كثير العفو وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه وأصله المحو والطمس. أجود أكثر جوداً، الزلات: الأخطاء البسيطة فاجتناب الكبائر يكفر الصغائر (أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم).

يقول: كان الرسول ﷺ كثير العفو عن زلاتهم ويقبل أعذارهم، وإن يحسنوا عملهم فالله سبحانه وتعالى سوف يثيبهم، لأنه أكثر منهم جوداً.

فلئن شكرتم لأزيدنكم،وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان)

٢٣ ـ ناب: نزل، لم يقوموا بحمله: أي لم يقوموا بواجبهم نحوه.

تيسير: تسهيل. ما يتشدد: أي ما يصعب من الأمور، يقول:

إن نابتهم نائبة ولم يقوموا نحوها بما يجب سهّلها الرسول ﷺ وكشف غمتها فقد كان الرسول ﷺ يمثل بعمله هذا روح الإسلام والدين «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحداً إلا غلبه».

٢٤ ـ قوله فبيناهم في نعمة الله: بيان نعمة الله التي هم فيها. دليل: مرشد، هاد، نهج الطريقة: الطريقة الواضحة. النهج: الطريق البين.

يقصد: يستقيم.

يقول: لقد كان المسلمون والرسول (ﷺ) بين ظهرانيهم في نعمة

كبيرة من الله سبحانه وتعالى. ذلك لأنه كان يهديهم إلى الطريقة الواضحة المستقيمة المتمثلة في الدين الإسلامي الحنيف.

٢٥ - عزيز عليه: صعب عليه. أو شديد عليه، يجوروا: يميلوا، أو ينحرفوا.

يقول: كان يشق عليه صلوات الله وسلامه عليه أن ينحرفوا عن جادة الصواب، يحرص كل الحرص على استقامتهم وهدايتهم. فمن صفاته عليه السلام الحرص على مصلحة المسلمين وهدايتهم.

٢٦ - عطوف عليهم: مشفق عليهم وبارٌ بهم، لا يثني جناحه: لا يصرف عطفه عن أحد أي أنه عطوف عليهم جميعاً، الكنفَ الجانب. (الجناح للطائر ويطلق على عضد الإنسان ويده وكله) يمهد: يوطىء.

يقال مهدت لنفسي: أي جعلت لها مكاناً وطياً سهلاً ومنه قوله تعالى فلأنفسهم يمهدون: أي يوطئون يقول: كان عليه السلام كثير العطف عليهم جميعاً، فلا يحابي أحداً منهم على حساب الآخرين، ولا يصرف ميله إلى جانب دون آخر، وفضلاً عن ذلك فقد كان يعمل على تيسير أمورهم وتسهيلها فمن صفاته عليه السلام العطف والرعاية والعدل بين المسلمين جميعاً.

٢٧ - مقصد: مصيب من أقصد السهم أي أصاب فقتل. غداً: ذهب وانطلق النور الأولى: هي نعمة الرسالة.

النور الثانية: الرسول الكريم.

يقول وبينما كانوا في تلك النعمة الغامرة المستمدة من نور النبوة والرسالة انطلق سهم الموت فأصاب نبيهم الذي كان بمثابة النور الذي به يهتدون.

٢٨ - يبكيه: أي يبكي عليه والمراد بالجفن هنا العين نفسها. المرسلات: الملائكة. ويروي يبكيه جفن المرسلات يريد الملائكة المستترة عن أعين الآدميين.

يقول: أن الرسول (ﷺ) قد انتقل إلى جوار ربه بعد أن صنع ما يحمد

عليه، أي بعد أن أدى الرسالة على خير وجه. وقد أخذت الملائكة تبكيه حزناً وألماً وتثنى عليه.

٢٩ ـ بلاد الحرم يعني مكة وما اتصل بها من الحرم، وحشاً: موحشة ومقفرة يلفها الحزن والألم يقول: أمست بقاع مكة وحرمها موحشة لغيبة ما كانت تعهده من الوحي، أي لانقطاع الوحي عنها لغيبة سيدنا رسول الله، واختتام الرسالة الشريفة.

٣٠ ـ قفاراً: مقفرة، خالية. البلاط: موضع معروف بالمدينة بين المسجد والسوق، الغرقد: نوع من شجر العضاة وشجر الشوك ومنه قيل لمقبرة أهل المدينة الغرقد وبقيع الغرقد، لأنه كان فيه غرقد واستؤصل، ضافها: نزل في ضيافتها.

يقول: لقد أمست بلاد الحرم مقفرة ما عدا قبراً نزل به فقيد يبكي عليه بلاط وغرقد ومسجده إلى آخره فقد شمل الحزن والألم جميع أرجاء البلد الحرام وبكى على الرسول (ﷺ) من في السموات ومن في الأرض جميعاً.

٣١ ـ له فيه مقام ومقعد: أي كان للفقيد صلوات الله عليه في هذه الأمكنة الموحشة لفقده المقفرة منه قيام وقعود، خلاء: خالية ومقفرة، يقول: لقد كان للرسول (ﷺ) في مسجده مكان يقوم فيه للصلاة ومقعد يقعد فيه ليعلم المسلمين أمور دينهم بينما كانت الأماكن الخالية من ذكرياته عليه السلام خالية وموحشة ومقفرة.

٣٢ ـ الجمرة الكبرى: إحدى جمرات المناسك وهي ثلاث جمرات، يرمين بمنى، وسميت جمرة لأنها ترمي بالجمار، وقيل لأنها مجمع الحصى التي ترمى بها من الجمرة وهي اجتماع القبيلة على من ناوأها. أوحشت: أقفرت، عرصات: ساحات، الربع: الدار وما حولها.

يقول: كما اقفرت منه بلاد الحرم وطيبة وبلاط وغرقد ومسجده بها عليه الصلاة والسلام كما اقفرت كذلك وأوحشت ديار وساحات بالجمرة الكبرى أي بمنى.

٣٣ ـ عبرة بفتح العين. . . دمعة. يجمد. يتوقف عن النزول، بكيّ: زيدي في بكائه عبرة بكسر العين: العظة.

يقول: فاذرفي الدمع يا عيني على رسول الله (ﷺ) دمعة بعد دمعة ولست أظن دمعك يجمد طول الدهر. . . أي مهما بكيت فلا يمكن أن تفي الرسول حقه. وعلى المؤمن أن يأخذ العظة من موته عليه السلام.

٣٤ ـ سابغ من أسبغ الله عليه النعمة: أكملها وأتمها ووسعها، ونعمة سابغة: كاملة تامة، يتغمد: يشمل بالرحمة.

يقول: ومالك لا تبكين محمداً (ﷺ) صاحب النعمة الجزيلة على الناس والتي غمر بها لكمالها وتمامها الجميع. والمقصود بهذه النعمة هي الرسالة التي جاء بها للناس كافة فأخرجتهم من الظلمات إلى النور.

٣٥ ـ أعولي: أي ارفعي صوتك بالبكاء (وهذا مكروه في الإسلام)

يقول: إذرفي يا نفسي الدموع عليه بسخاء وارفعي صوتك بالبكاء لفقد محمد ﷺ الذي لم ولن يوجد إنسان مثله على مر الدهر إذ كيف للدهر أن يجود أو يوجد مثل محمد (ﷺ) وهو خاتم الأنبياء والمرسلين؟

٣٦ ـ إن الأجيال لم تفقد إنساناً في وزن محمد (ﷺ)، كما أن الأجيال اللاحقة لن تفقد إنساناً مثله. فهو المتميز على بقية الأنبياء بأن له حق الشفاعة ومن أولي العزم ورسالته (ﷺ) للناس كافة وهو خاتمهم ولا نبي بعده. . .

٣٧ ـ ذمة: عهد. نائل: عطاء. لا ينكد: لا يكدر بالمن الذي يفسد العطاء، العفة: الشرف والطهارة.

يقول: لا يوجد من هو أكثر عفة أو أوفى عهداً أو أكثر عطاء من محمد ﷺ، لا يكدر بالمن الذي يفسده (من صفاته عليه السلام أنه كان عفيف النفس وفياً للعهد كريم اليد والنفس)

٣٨ ـ البذل: العطاء. أبذل أكثر عطاء. الطريف والطارف: المال

المحدث المستفاد، المكتسب التالد والتليد: المال القديم الأصلي، الموروث. ضن: بخل. معطاء: صيغة مبالغة أي كثير العطاء. يتلد: يتخذ من مال.

يقول: لا يوجد من أكثر منه عطاء للمال سواء أكان مكتسباً أم موروثاً لا سيما في أوقات الشدة التي يبخل فيها الكرماء.

«هنا يركز الشاعر على صفة الكرم عند الرسول (ﷺ) في جميع الحالات في اليسر والعسر في الشدة والرخاء».

٣٩ ـ انتمى: انتسب، وأبطحيا نسبة إلى الأبطح بمكة وقريش البطاح هم الذين ينزلون خارج الشعب وأكرمها قريش البطاح.

يقول: إن الرسول (ﷺ) (ينتسب إلى البيت الهاشمي الذي يعد من أكرم بيوتات قريش إضافة إلى أن جده عبد المطلب بن عبد مناف يعد أفضل من ساد قريشاً ومكة فهو من بيت عريق في النسب والسيادة والرياسة.

٤٠ ـ ٤١ ـ ذروات: جمع ذروة وذروة كل شيء أعلاه. شاهقات: مرتفعات.

المزن: السحاب. أغيد: ناعم أخضر. (الأبيات ٣٩ ـ ٤١ ـ في مدح نسب الرسول (ﷺ). والإشادة ببيته وأسرته)

يقول: أن بيته عليه السلام من أمنع البيوت وأسماها مكانة وأرسخها قدماً في المعالي، نظراً لأنه على دعائم مرتفعات. كما أن الفرع الذي ينتمي إليه يعد أثبت الفروع وأصلحها منبتاً وأكثرها نضارة فهو من فرع في هذه الشجرة يوصف بالخضرة والنعومة والنماء.

٤٢ ـ قوله رب ممجد فاعل رباه، واستتم بمعنى اكتمل وهذا موافق لما قاله الرسول (ﷺ) أدبني ربي فأحسن تأديبي. كما كان عليه السلام خلقه القرآن.

يقول: أن الله سبحانه وتعالى قد تعهده منذ كان طفلاً، فبلغ سن الرشد

وقد تحلى باكرم الصفات وأنبل السجايا. ولذلك عرف عليه السلام في الجاهلية بالصادق الأمين وأنه لم يحضر مجلس لهو أو شراب كما كان المحكم في رفع الحجر الأسود.

٤٣ ـ تناهت: انتهت. الوصاة: الوصية والمراد بها هنا ما يتلقاه المسلمون منه (ﷺ) وقوله بكفه: فالكف هنا تمثيل لما عند رسول الله من العلوم وكأنه في قبضة يده. وقوله ولا الرأي يفند: فالفند الخطأ في الرأي. وأفند خطأ رأيه وأضعفه.

يقول: وكان ما تلقاه المسلمون من الرسول (ﷺ) قد بلغ الغاية، وأصبحوا يصدرون منه عن علم لا علم بعده ويصدرون عن رأيه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى: **﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾**.

٤٤ ـ عازب العقل: بعيده أي فاقده، لا يلفي: لا يوجد، مبعد: لا يؤخذ برأية يقول: لا يعيب قولي هذا إلا من فقد عقله وضيعه.

٤٥ ـ ٤٦ ـ نازعاً من نزع أو كف وانتهى، عن ثنائه: عن مدحه. المصطفى: محمد ﷺ. أجهد: اتعب.

يقول: أنني سأستمر في مدحه ﷺ عن ميل له وإعجاب به، فلعل ذلك يكون خير وسيلة لي للظفر بالجنة يوم القيامة والخلود فيها إلى جواره، ولبلوغ ذلك فإنني أعمل بجد وأرهق نفسي.

(الأبيات ٤٥ ـ ٤٦ يكشف الشاعر فيها عن أمنيته وغايته من هذا المديح).

الأسلوب:

أ ـ عرف عن أسلوب حسان بأنه كان في الجاهلية أقوى منه في الإسلام وهذا ينطبق على أسلوبه في قصيدته هذه.

ب ـ رغم الضعف الذي أصاب أسلوبه نتيجة التكرار في الألفاظ فإن

أسلوبه بقي محافظاً على المستوى الفني المقبول الذي يعبر عن المصيبة التي حلت بالمسلمين.

جـ - كان أسلوبه أيضاً محافظاً على بعض قوته رغم أنه استعمل العديد من الألفاظ التي يمكن الاستغناء عنها.

لفظه ومعناه - جاءت ألفاظ الشاعر ومعانيه سهلة وواضحة وإسلامية في معظمها، وهذا مما زاد أسلوبه سهولة ووضوحاً وبعداً عن التعقيد، رغم ما وقع فيه من التكرار في الألفاظ والمعاني والأثر الجاهلي في بعض الألفاظ وفي المقدمة الطللية على عادة شعراء الجاهلية.

العاطفة:

تمتاز عاطفة الشاعر بأنها.

١ - إنسانية سوية يشاركه فيها كل من فقد عزيز.

٢ - صادقة وحزينة كيف لا وهو يرثى سيد الخلق محمد (ﷺ) وصاحب الفضائل على الناس كافة.

٣ - إسلامية في معناها وروحها وقيمتها فهو شاعر الرسول (ﷺ) المعبر عن تعاليمه وقيمه وشمائله الكريمة.

الخيال:

جاء الخيال في القصيدة وفق مقتضى الحال فلم يكثر الشاعر من الصور والتشابيه ذلك أنه يصف الحال ويقرره ولا وقت عنده للتصوير أو للتخيل فهو حزين والمصاب عظيم أما الصور التي جاءت في القصيدة من تشبيه الرسالة بالنور وغيرها فهي حقيقة.

صورة المجتمع الإسلامي من خلال قصيدة حسان:

تحدث حسان عن موت الرسول (ﷺ) وصور لنا حال المسلمين عند وفاته ومقدار الحزن الذي حل بهم ومن ثم أشار إلى أثار الرسول (ﷺ)

بالمدينة والجزيرة العربية بشكل عام، ورغم أن الشعر تحدث عن صفات الرسول ومناقبه وأثر الرسالة في بناء ذلك المجتمع إلا أنه لم يستطع أن يرسم لنا صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية وما فيها من عادات وتقاليد ومثل في ذلك المجتمع الإسلامي وذلك لأن الشاعر كان متحرجاً من أن ينطلق وفق سجيته وطبعه العربي لأن الإسلام كان ضد الشعراء ولهوهم وهذا ما اتضح في آخر القصيدة حيث ظهر خوفه من اللوم والعتاب.

ملاحظات على القصيدة:

١ ـ تعد هذه القصيدة خير ما رثى حسان بن ثابت به الرسول (ﷺ)، في تعبيرها عن صدق العاطفة والأسى العاصف العميق، فهي مفعمة باللوعة والوحشة وحس الافتقاد والشاعر فيها يهتف بتأوه ووجد وحسرة. غير أنها لم تخل مما يشوبها من ضعف في بعض معانيها، أو انقطاع النفس الشعري دون الغاية المرجوة منها، من ذلك قوله: «منبر الهادي الذي كان يصعد»، وقوله: «واراه في الترب ملحد»، وقوله «علوه الثري لا يوسد»، وربما كان لهول الفجيعة التي حاقت بحسان لفقد الرسول، وعظم الخطب في ذاته دخل في هذا.

٢ ـ يظهر أثر القرآن الكريم واضحاً جلياً في شعره. وعلى سبيل المثال فقد أخذ معنى قوله:

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثني جناحه إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

من قوله تعالى: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**.

والشاعر يكثر من التعابير والألفاظ الإسلامية نتيجة لتأثره بالدين الجديد فقد كرر لفظه الآء وهي من سورة الرحمن وجاء بالمرسلات وهي اسم سورة في القرآن الكريم.

٣ ـ تبدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال على عادة الشعراء في ذلك

العصر، وتتراءى فيها الروح الجاهلية بتمدحة بنسب الرسول (ﷺ) والإشادة بمآثر عشيرته وبسمو مكانتها وما تتماز به عن غيرها ونحو ذلك، مما يتنافى مع الروح الإسلامية التي تحارب العصبية القبلية على اختلاف أنواعها وتفاوت صورها.

٤ ـ كلمات القصيدة سهلة وأسلوبها قوي متين، والشاعر يستخدم أسلوبي الخبر والإنشاء، مما يسهم في دفع الملل عن القارىء أو السامع أما موسيقاها فجيدة وهي تعبر عن الأسى العاصف العميق.

٥ ـ تشتمل القصيدة على عدد من الدلالات البيئية والثقافية والاجتماعية ومن أبرز تلك الدلالات ما يلي:

١ ـ إن بها وصفاً جغرافياً للمدينة المنورة ومعالمها البارزة.

٢ ـ إن الرسول (ﷺ) قد أوجد العديد من المعالم الإسلامية البارزة في المدينة المنورة قبل وفاته.

٣ ـ إن المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة كان يمثل مركز أشعاع للناس في عهد الرسول (ﷺ) وبعد وفاته وهكذا يتوجب أن تستمر رسالة المسجد كما كانت في عهده (ﷺ).

٤ ـ إن الإحسان إلى الناس يترك أثراً طيباً في نفوسهم، ويدفعهم إلى التعلق بالمحسن والثناء عليه فالمعلم أو القائد أو الحاكم يجب أن يكون القدوة للآخرين.

٥ ـ إن الرسول (ﷺ) كان جواداً وقد بلغ الغاية في الجود، مما جعل من المتعذر على الرجل من أصحابه كحسان أن يحصي النعم التي أسبغها عليه.

٦ ـ إن شكر المحسن أمر مرغوب فيه كلون من ألوان العرفان بالجميل.

٧ ـ إن القبور في زمن النبي ﷺ كانت تُبنى بالحجارة العريضة التي يصف بعضها فوق بعض.

٨ - إن وفاة الرسول (ﷺ) قد تركت أثراً عميقاً في نفوس المسلمين، لدرجة أن إحساسهم بالفقد قد أوهن ظهورهم وسواعدهم. ولعل إنكار عمر لوفاة الرسول عليه السلام لأول وهلة يدل على هول الصدمة وجلال المصيبة في نفوسهم.

٩ - أن الرسول بمثابة معلم للمسلمين يرشدهم إلى ما يكفل لهم السعادة في الدنيا والآخرة ليأخذوا به ويبصرهم بما يمكن أن يجلب لهم التعاسة ليتجنبوه.

١٠ - إن القيادة الحقة تتطلب من القائد ما يلي:

أ - العفو والتجاوز عن ذنوب الأفراد وقبول أعذارهم.

ب - مساعدة الأفراد في التغلب على المشكلات التي تواجههم ولا يستطيعون إيجاد حلول لها.

جـ - معاملة الجميع على قدم المساواة.

د - العمل على وقايتهم من الانحراف.

هـ - إن العطاء يجب ألا يكدر بالمن حتى لا يفسد.

١١ - إن المرء لا يحقق أهدافه إلا بالسعي وبذل الجهد. ولعل هذه الصفات والخصال التي تميز بها الرسول (ﷺ) بالإضافة إلى العناية الآلهية هي التي أهلته لقيادة الأمة وبناء صرح الإسلام رغم كل المعوقات والصعاب وهذه الصفات يجدر بكل قائد أو مسؤول أن يتحلى بها وأن يسير على نهجه عليه السلام كي ينجح في عمله فيؤدي الأمانة ويبلغ الرسالة على أكمل وجه كما فعل قدوتنا ورسولنا الكريم الذي يجب أن نسير على هديه إنْ اخترنا النجاة في الدارين.

الفصل الثالث

من القرآن الكريم

سورة الحجرات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ
أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ
أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ
ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ
تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ
﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن
يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ
وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ
ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ
أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ
وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ
١٣ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي
قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ
قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨

التفسير:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ أي يا أيها المؤمنون؟ يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله، لا تقدموا أمراً أو فعلاً بين يدي الله ورسوله، وحذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعل، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه ونحو ذلك قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ﷺ وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم[1] وقال البيضاوي: المعنى لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكم الله ورسوله له، وقيل: المراد بين يدي رسول الله، وذكر الله تعظيماً له وإشعاراً بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله[2] **﴿واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾** أي واتقوا الله فيما أمركم به، إن الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والروعة في النفس... ثم أرشد تعالى المؤمنين إلى وجوب توقير الرسول وإجلاله واحترامه فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾** أي إذا كلمتم رسول الله ﷺ فاخفضوا أصواتكم ولا ترفعوها على صوت النبي **﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾** أي ولا تبلغوا عند مخاطبته ﷺ كما يجهر بعضكم في الحديث مع البعض، ولا

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥٧.

(٢) البيضاوي ٣/ ٣٦٥ من الحاشية.

تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً فتقولوا: يا محمد، ولكن قولوا يا نبي الله، ويا رسول الله، تعظيماً لقدره، ومراعاة للأدب قال المفسرون: نزلت في بعض الأعراب الجفاة الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه، ولا يعرفون توقير الرسول الكريم **﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾** أي خشية أن تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون ولا تدرون، فإن في رفع الصوت والجهر بالكلام في حضرته ﷺ استخفافاً يؤدي إلى الكفر المحبط للعمل قال ابن كثير: روي أن ثابت بن قيس كان رفيع الصوت، فلما نزلت الآية قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار، حبط عملي، وجلس في أهله حزيناً، فافتقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ مالك؟ فقال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ لا بل هو من أهل الجنة[1] وفي رواية «أترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟ فقال: رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ[2] وقيل نزلت في مجادلة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بحضرة النبي (ﷺ) في مسألة تأمير الأقرع بن حابس والقعقاع بن معبد. **﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾** أي إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ومرنها عليها وجعلها صفة راسخة فيها قال ابن كثير: أي أخلصها للتقوى وجعلها أهلاً ومحلاً **﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾** أي لهم في الآخرة صفح عن ذنوبهم، وثواب عظيم في جنات النعيم... ثم ذم تعالى الأعراب الجفاة الذين ما كانوا يتأدبون في ندائهم للرسول ﷺ فقال: **﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾** أي يدعونك من وراء الحجرات، منازل أزواجك الطاهرات **﴿أكثرهم لا يعقلون﴾** أي أكثر هؤلاء غير عقلاء، إذ العقل

---

(١) الحديث أخرجه أحمد.

(٢) ذكر هذه الراواية ابن جرير الطبري.

بقتضي حسـن الأدب، ومراعـاة العـظماء عنـد خطابهـم، سيما لمن كان بهذا المنصب الخطير قال البيضاوي: قيل إن الـذي ناداه «عيينـه بـن حصيـن» و «الأقرع بن حابس» وفـداً على رسـول الله ﷺ في سبعـين رجـلاً من بنـي تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد أخرج إلينا[1] ﴿ **ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم** ﴾ أي ولـو أن هؤلاء المنـادين لم يزعجـوا الرسول ﷺ بمناداتهم وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيراً لهم وأفضل عند الله وعند الناس، لما فيه من مراعاة الأدب في مقام النبوة ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أي الغفور لذنوب العباد، الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحهم وتقريعهم، ولم ينزل العقاب بهم... ثم حذر تعالى من الاستماع للأخبار بغير تثبت فقال ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ أي إذا أتاكم رجل فاسق ـ غير موثوق بصدقه وعدالته ـ بخبر من الأخبار ﴿ **فتبينوا** ﴾ أي فثبتوا من صحة الخبر ﴿ **إن تصيبوا قوماً بجهالة** ﴾ أي لئلا تصيبـوا قومـاً وأنتم جاهلون حقيقة الأمر ﴿ **فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ أي فتصيروا نادمين أشـد النـدم على صنيعـكم، نزلـت هذه الآية الكريمـة في الوليد بـن عقبة وقد بعثه النبي (ﷺ) إلى بني المصطلـق لجمـع الصدقـات فخافهـم لعـداوة بينه وبينهم في الجاهلية فعـاد إلى النبـي (ﷺ) وأخبـره أنهـم منعـوا الصدقـات وهموا بقتلـه فهـمّ النبـي (ﷺ) بقتالهـم فجـاءوا إليه عليه السـلام منـكرين ما نسب إليهـم فأرسـل (ﷺ) إليهـم خالد بـن الـوليد ليتـأكد من أمرهـم فلـم يجد فيهم خالد إلا الطاعـة والصـلاة والخـير فأخـذ الصدقـات وعـاد إلى النبي (ﷺ) وأخبره الخبر فنـزل قولـه تعـالى: ﴿ **يا أيهـا الـذين آمنـوا إن جاءكـم فاسق...** ﴾ ﴿ **واعملـوا أن فيكم رسـول الله** ﴾ أي واعملـوا ـ أيهـا المؤمنـون ـ أن بينـكم الرسـول المعظـم، والنبـي المـكرم، والمعصـوم عن أتبـاع الهـوى ﴿ **لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم** ﴾ أي لو يسمع وشاياتكم، ويصغـى بسمعـه لإرادتكم، ويطيعكم في غالب ما تشيرون عليه من الأمور، لوقعتم في الجهد

(١) تفسير البيصاوي ٣/ ٣٦٧.

والهلاك قال ابن كثير: أي اعملوا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم[1] ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾ أي ولكنه تعالى ـ بمنه وفضله ـ نور بصائركم فحبب إلى نفوسكم الإيمان ﴿ وزينه في قلوبكم﴾ أي وحسنه في قلوبكم، حتى أصبح أغلى عندكم من كل شيء ﴿ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ أي وبغض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من الكفر والمعاصي والخروج عن طاعة الله قال ابن كثير: والمراد بالفسوق الذنوب الكبار، وبالعصيان جميع المعاصي[2] ﴿ أولئك هم الراشدون﴾ أي أولئك المتصفون بالنعوت الجليلة هم المهتدون، الراشدون في سيرتهم وسلوكهم، والجملة تفيد الحصر أي هم الراشدون لا غيرهم ﴿ فضلاً من الله ونعمة﴾ أي هذا العطاء تفضل منه تعالى عليكم وإنعام ﴿ والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية، حكيم في خلقه وصنعه وتدبيره. . . ثم عقب تعالى على ما يترتب على سماع الأنباء المكذوبة من تخاصم وتباغض وتقاتل فقال ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ أي وإن حدث أن فئتين وجماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال فأصلحوا بينهما، وأسعوا جهدكم للإصلاح بينهما، والجمع ﴿ اقتتلوا﴾ باعتبار المعنى، والتثنية ﴿ بينهما﴾ باعتبار اللفظ ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى﴾ أي فإن بغت إحداهما على الأخرى، وتجاوزت حدها بالظلم والطغيان، ولم تقبل الصلح وصممت على البغي ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ أي فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه، وتقلع عن البغي والعدوان، وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا﴾ أي فإن رجعت وكفت عن القتال فأصلحوا بينهما بالعدل، دون حيف على إحدى الفئتين، وأعدلوا في جميع أموركم ﴿ إن الله يحب المقسطين﴾ أي يحب العادلين الذين لا يجورون في

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٢.

أحكامهم قال البيضاوي: والآية نزلت في قتال حدث بين «الأوس» والخزرج في عهده ﷺ كان فيه ضرب بالسعف والنعال، وهي تدل على أن الباغي مؤمن، وأنه إذا كف عن الحرب ترك، وأنه يجب تقديم النصح والسعي في المصالحة[1] وقيل أنها نزلت في ابن أبي عندما مر عنه رسول الله (ﷺ) راكباً حماره فبال الحمار فمسك ابن أبي أنفه فقال له عبد الملك بن رواحة والله لبول حماره أطيب من مسكك فكان بين قوميهما ضرب بالأيدي والسعف والنعال. ﴿**وإنما المؤمنون إخوة**﴾ أي ليس المؤمنون إلا أخوة، جمعتهم رابطة الإيمان، فلا ينبغي أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء، ولا تباغض ولا تقاتل قال المفسرون: ﴿**إنما**﴾ للحصر فكأنه يقول: لا أخوة إلا بين المؤمنين، ولا أخوة بين مؤمن وكافر، وفي الآية إشارة إلى أن أخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب، بحيث لا تعتبر أخوة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام ﴿**فأصلحوا بين أخويكم**﴾ أي فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين، ولا تتركوا الفرقة تدب، والبغضاء تعمل عملها ﴿**واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾ أي اتقوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لتنالكم رحمته، وتسعدوا بجنته ومرضاته ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم**﴾ أي يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله وبرسوله، لا يهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد، فقد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، ورب أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبره[2] ﴿**ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن**﴾ أي ولا يسخر نساء من نساء فعسى أن تكون المحتقر منها خيراً عند الله وأفضل من الساخرة ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب**﴾ أي ولا يعب بعضكم بعضاً، ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، وإنما قال ﴿**أنفسكم**﴾ لأن المسلمين كأنهم نفس واحدة ﴿**بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان**﴾ أي بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً قال البيضاوي: وفي الآية دلالة

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٧١.

(٢) هذا الحديث صحيح.

على أن التنابز فسق، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح[2] ﴿**ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾ أي ومن لم يتب عن اللمز والتنابز فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب، يقال أن الآية نزلت في وفد من تميم سخر من فقراء المسلمين وعاب عليهم فقرهم وحالتهم وضعفهم فنزل قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم...**﴾ ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن**﴾ أي ابتعدوا عن التهمة والتخون وإساءة الظن بالأهل والناس، وعبر بالكثير ليحتاط الإنسان في كل ظن ولا يسارع فيه بل يتأمل ويتحقق ﴿**إن بعض الظن إثم**﴾ أي إن في بعض الظن إثم وذنب يستحق صاحبه العقوبة عليه قال عمر رضي الله عنه: «لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجدها في الخير محملاً»[3] ﴿**ولا تجسسوا**﴾ أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معايبهم[4] ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضاً**﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكرهه ﴿**أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً**﴾ تمثيل لشناعة الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من التقبيح أي هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت؟ ﴿**فكرهتموه**﴾ أي فكما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا الغيبة شرعاً، فإن عقوبتها أشد من هذا... شبه تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتاً، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان ـ فضلاً عن كونه أخاً، وفضلاً عن كونه ميتاً وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد ﴿**واتقوا الله**﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿**إن الله تواب رحيم**﴾ أي إنه تعالى كثير التوبة، عظيم الرحمة، لمن اتقى وتاب وأناب، وفيه حث على التوبة، وترغيب بالمسارعة إلى الندم

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٧٣.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤.

(٣) وفي الحديث يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته) أخرجه الحافظ أبو يعلى.

والاعتراف بالخطأ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾** الخطاب لجميع البشر أي نحن بقدرتنا خلقناكم من أصل واحد، وأوجدناكم من أب وأم فلا تفاخر بالآباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلكم لآدم وآدم من تراب **﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾** أي وجعلناكم شعوباً شتى وقبائل متعددة، ليحصل بينكم التعارف والتآلف، لا التناحر والتخالف قال مجاهد: ليعرف الإنسان نسبه فيقال فلان بن فلان من قبيلة كذا[1] وأصل تعارفوا تتعارفوا حذفت إحدى التاءين تخفيفاً قال شيخ زادة: والمعنى إن الحكمة التي من أجلها جعلكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ولا ينسبه إلى غير آبائه، لا أن تتفاخر بالآباء والأجداد، والنسب وإن كان يعتبر عرفاً وشرعاً، حتى لا تزوج الشريفة بالنبطي، إلا أنه لا عبرة به عند ظهور ما هو أعظم قدراً منه وأعز، وهو الإيمان والتقوى، كما لا تظهر الكواكب عند طلوع الشمس[2] **﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** أي إنما يتفاضل الناس بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، فمن أراد شرفاً في الدنيا ومنزلة في الآخرة فليتق الله كما قال ﷺ : (من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله)[1] . وفي الحديث (الناس رجلان: رجل برتقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى)[2] **﴿ إن الله عليم خبير﴾** أي عليم بالعباد، مطلع على ظواهرهم وبواطنهم، يعلم التقي والشقي، والصالح والطالح **﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾** . **﴿ قالت الأعراب آمناً قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾** أي زعم الأعراب أنهم آمنوا قل لهم يا محمد: إنكم لم تؤمنوا بعد، لأن الإيمان تصديق مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لما مننتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة، ولكن قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي قال المفسرون: نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة مجدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٦٧.

(٢) حاشية شيخ زادة على البيضاوي ٣/ ٣٧٥.

(٣) البيضاوي ٣/ ٣٧٥.

(٤) جزء من خطبة قالهاﷺ عند فتح مكة وخطب الناس بها.

الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، يريدون الصدقة ويمنون على الرسول، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبة أعلى من الإسلام، الذي هو الإستسلام والانقياد بالظاهر ولهذا قال تعالى ﴿ **ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعد، ولفظة «لما» تفيد التوقع كأنه يقول: وسيحصل لكم الإيمان عند إطلاعكم على محاسن الإسلام، وتذوقكم لحلاوة الإيمان قال ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فأدعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك، ولو كانوا منافقين ـ كما ذهب إليه البخاري ـ لعنفوا وفضحوا[٣] ﴿ **وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً** ﴾ أي وإن أطعتم الله ورسوله بالإخلاص الصادق، والإيمان الكامل، وعدم المن على الرسول لا ينقصكم من أجوركم شيئاً ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أي عظيم المغفرة، واسع الرحمة، لأن صيغة «فعول» وفعيل تفيد المبالغة. . . ثم ذكر تعالى صفات المؤمنين الكمل الصادقين في إيمانهم فقال ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله** ﴾ أي إنما المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، الذين صدقوا الله ورسوله، فأقروا لله بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، عن يقين راسخ وإيمان كامل ﴿ **ثم لم يرتابوا** ﴾ أي ثم لم يشكوا أو يتزلزلوا في إيمانهم بل ثبتوا على التصديق واليقين ﴿ **وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله** ﴾ أي وبذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ أي أولئك الذين صدقوا في أدعاء الإيمان. . . وصف تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف: الأول: التصديق الجازم بالله ورسوله الثاني: عدم الشك والارتياب الثالث: الجهاد بالمال والنفس، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق ﴿ **قل أتعلمون الله بدينكم** ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد: أتخبرون الله بما في ضمائركم وقلوبكم؟ ﴿ **والله يعلم ما في السموات وما في الأرض** ﴾ أي وهو جل وعلا

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٩.

العليم بأحوال جميع العباد، لا تخفى عليه خافية لا في السموات ولا في الأرض ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي واسع العلم رقيب على كل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ أي يعدون إسلامهم عليك يا محمد منه، يستوجبون عليها الحمد والثناء ﴿قل لا تمنوا علي إسلامكم﴾ أي قل لهم لا تمنوا علي بإسلامكم، فإن نفع ذلك عائد عليكم ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ أي بل لله المنة العظمى عليكم، بالهداية للإيمان والتثبيت عليه، إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان عن ابن عباس قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله (ﷺ) فقالوا يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، وأخذوا يمنون عليه فنزلت الآية الكريمة: ﴿يمنون عليك...﴾ ﴿إن الله يعلم غيب السموات والأرض﴾ أي يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ﴿والله بصير بما تعملون﴾ أي مطلع على أعمال العباد، لا تخفى عليه خافية... كرر تعالى الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وإحاطته بجميع المخلوقات، ليدل على سعة علمه، وشموله لكل صغيرة وكبيرة، في السر والعلن، والظاهر والباطن.

المناسبة:

لما دعا تعالى إلى مكارم الأخلاق ونهى عن مساوئها، وحذر المؤمنين من بعض الأفعال القبيحة، دعا الناس هنا جميعاً للتعارف والتآلف ونهاهم عن التفاخر بالأنساب، ثم بين صفات المؤمن الكامل.

﴿قبائل﴾ جمع قبيلة وهي الجماعة التي يربطها حسب أو نسب، وهي أخص من الشعب، لأن الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، فالشعب يجمع القبيلة، والقبيلة تجمع البطون والأفخاذ.

الأفكار:

١ - من الآية ١ - ٥: تبصير المؤمنين بكيفية مخاطبة الرسول (ﷺ).

٢ - من الآية ٦ - ١٢: توجيهات ربانية للمؤمنين للحفاظ على وحدة المجتمع الإسلامي.

٣ ـ من الآية ١٣ ـ ١٨ : المساواة بين الناس ووضع أساس التفاضل فيما بينهم مع التفريق بين الإيمان والإسلام وبيان شروط الإيمان الصادق مع بيان فضل الله تعالى على الناس كافة وعلى المؤمنين بشكل خاص.

ما أرشدت إليه السورة الكريمة.

سورة الحجرات تسمى سورة «الأخلاق والآداب» فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان خمس مرات، وفي كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم وفضيلة من الفضائل، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها في فقرات:

أولاً: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله وعدم التقدم عليه بقول أو رأي ﴿**يا أيها الذين آمنوا تقدموا بين الله ورسوله**﴾.

ثانياً: احترام الرسول وتعظيم شأنه ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي...**﴾.

ثالثاً: وجوب التثبت من الأخبار ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا...**﴾.

رابعاً: النهي عن السخرية بالناس ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم...**﴾.

خامساً: النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن...**﴾ وسورة الحجرات من السور المدنية التي نزلت على الرسول (ﷺ) في المدينة المنورة بعد أن تأسست النواة الأولى للدولة الإسلامية على يد الرسول العظيم ولذلك اشتملت السورة على مجموعة القواعد والأسس اللازمة لبناء المجتمع الإسلامي الحديث ورفع بنيانه وتمتين وحدته فنراها تنظم العلاقة بين الحكم ورعيته وبين أعضاء المجتمع الإسلامي الواحد.

فقد سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة من قتال فقال «تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته».

كما أرشدتنا السورة الكريمة إلى صفات المؤمن الحق و بينتها على النحو التالي:

١ ـ أن يؤمن بالله تعالى واحداً أحداً فرداً صمداً وبرسوله الكريم إيماناً راسخاً لا يتزعزع ولا يتطرق إليه الشك أبداً.

٢ ـ عدم الشك أو الارتياب في كل ما جاء به الرسول (ﷺ) عن ربه (الإيمان بالرسالة).

٣ ـ الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس أو بأحدهما إن تعذر وجود الآخر والجهاد هو التطبيق العملي للإيمان الصادق فمن تحققت فيه هذه الشروط كان مؤمناً حقاً وصادقاً في إيمانه.

الدراسة الفنية للسورة:

١ ـ الأسلوب:

أ ـ الأعجاز وهي الميزة التي يتفرد بها القرآن الكريم في سوره وآياته فقد تحدى النبي (ﷺ) أمة العرب بل الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلم يستطيعوا وأعلنوا عجزهم وقصورهم رغم أن العرب تميزت على غيرها من الأمم بالفصاحة والبلاغة والبيان.

ب ـ أسلوب القرآن الكريم قوى متين يظهر ذلك من التوازن الدقيق بين حروف القوة ـ قطب جد ـ وحروف اللين والخفة يرملون ـ وكذلك من سيطرة الجملة الفعلية على جو السورة مما أكسبها متانة في التركيب وقوة في الصياغة.

جـ ـ اعتمد القرآن الكريم أسلوب الموسيقى الداخلية بشكل واضح وذلك لكون السورة مدنية وآياتها طويلة وكون القرآن الكريم يركز بشكل عام على الموسيقى لاعتياد العرب في تلقيه وفهمه على الأذن والسماع منذ البداية.

٢ ـ الخيال:

لم يحتل الخيال في سورة الحجرات حيزاً كبيراً ذلك أن السورة مدنية

النزول والمجال فيها يتسع للعقل والتشريع وتنظيم المجتمع الإسلامي ووضع القوانين للدولة الإسلامية الجديدة وعليه فقد تضمنت سورة الحجرات صوراً محددة من البيان والبديع نوجزها فيما يلي . . .

١ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿ **لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ شبه حالهم في إبداء الرأي وقطع الأمر في حضرة الرسول بحال ملك عظيم تقدم للسير أمامه بعض الناس وكان الأدب يقضي أن يسيروا خلفه لا أمامه ، وهذا بطريق الاستعارة التمثيلية .

٢ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿ **ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض** ﴾ لوجود أداة التشبيه .

٣ ـ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ **أولئك هم الراشدون** ﴾ بعد قوله ﴿ **حبب إليكم الإيمان** ﴾ وهذا من المحسنات البديعة .

٤ ـ المقابلة بين ﴿ **حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم** ﴾ وبين ﴿ **وكرّه إليكم الكفر، والفسوق والعصيان** ﴾ .

٥ ـ الطباق ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ .

٦ ـ جناس الاشتقاق ﴿ **أقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ .

٧ ـ التشبيه التمثيلي ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً** ﴾ مثّل للغيبة بمن يأكل لحم الميت ، وفيه مبالغات عديدة لتصوير الاغتياب بأقبح الصور وأفحشها في الذهن .

٨ ـ طباق السلب ﴿ **آمنا قل لم تؤمنوا** ﴾ .

٩ ـ الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿ **أتعلّمون الله بدينكم** ﴾ .

١٠ ـ التشبيه البليغ ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ أصل الكلام المؤمنون كالأخوة في وجوب التراحم والتناصر، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه فأصبح بليغاً مع إفادة الجملة الحصر.

الفصل الرابع

الخطابة في صدر الإسلام

حجة الوداع

خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع

في السنة العاشرة للهجرة النبوية المباركة وفي الخمس الأواخر من شهر ذي القعدة تجهز الرسول (ﷺ) للحج وأمر الناس بالجهاز له ، قال ابن اسحق ثم مضى رسول الله عليه الصلاة والسلام على حجه فأرى الناس مناسكهم ، واعلمهم سنن حجهم ، وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين ، فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال: أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تُظلمون قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعاً في بني ليث ، فقتله هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم. أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات

والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان.

أم بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يطئن فرشكم أحد تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجرونهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وانكم انما أخذتموهن بامانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيننا، كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وإن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرىء من أخية إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟.

فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم أشهد.

حجة الوداع

الأفكار الرئيسية في الخطبة :

١ ـ الفكرة الأولى من قوله (ﷺ) : (أيها الناس اسمعوا قولي ـ إلى قوله فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية) الفكرة هنا هى التأكيد على ما جاء القرآن من وجوب تأدية الأمانات إلى أصحابها والوفاء بالعهود والمواثيق، وتحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وتحريم الربا وأكل مال الناس.

٢ ـ الفكرة الثانية من قوله (ﷺ) : (أما بعد أيها الناس : فإن الشيطان قد يئس، . . . إلى قوله . . . . فإحذروه على دينكم) فالفكرة تحذير الرسول الكريم للمسلمين من وساوس الشيطان أو العودة إلى الجاهلية الذميمة التي حاربها الإسلام.

٣ ـ الفكرة الثالثة من قوله (ﷺ) : (أيها الناس : إن النسيء . . . . إلى قوله . . . . ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان) الفكرة هنا بيان الرسول (ﷺ) عدة الشهور وتحديد الأشهر الحرم منها وتحذيره من المساس بها أو التلاعب بمواقيتها.

٤ ـ الفكرة الرابعة تبدأ من قوله (ﷺ) : (أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً. . . إلى قوله: واستحللتم فروجهن بكلمات الله) الفكرة هنا بيان حقوق، وواجبات كل من الزوج والزوجة تجاه بعضهما البعض مع التأكيد على رعاية المرأة وبيان كيفية تأديبها ومعاملتها.

٥ ـ الفكرة الخامسة تبدأ من قوله (ﷺ) : (فاعقلوا أيها الناس قولي. . . . . إلى قوله اللهم هل بلغت؟) ـ نهاية الخطبة ـ الفكرة هنا هي

توجيه الرسول الكريم للمسلمين بوجوب الإحتكام في كل أمر إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم مع التأكيد على أخوة المسلمين ونفي الظلم أو التظالم من بينهم.

الشرح:

١ ـ **الفكرة الأولى**: بدأ الرسول (ﷺ) خطبته هذه بحمد الله تعالى كما هي عادة الخطباء في الإسلام ثم خاطب الحجيج وأشعرهم بدنو أجله عليه السلام وأنه قد ينتقل إلى الرفيق الأعلى وأن عليهم أن يسمعوا قوله ويعوه ويتفهموه جيداً ويعملوا به وبعد أن جذب انتباههم إليه واستيقن من استماعهم وإصغائهم له بدأ عليه السلام بتوضيح أهم الحقائق والقواعد التي لا غنى للمجتمع الإسلامي عنها وقد ذكرها عليه السلام على النحو التالي: ـ

أ ـ تحريم قتل النفس الإنسانية التي حرم الله إلا بالحق وذلك ليقوم المجتمع الإسلامي على أساس من الوحدة والترابط لا تسوده الفوضى والخوف والثأر أو الحقد والعداوة. فمن قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

إن قتل النفس الإنسانية ظلماً وعدواناً يترتب عليه انتشار للفوضى وتخلخل للمجتمع وتدمير له ولهذا كانت وصية الرسول الكريم الأولى للمسلمين هو بالحفاظ على أرواحهم ودمائهم والإحتكام دائماً إلى الله ورسوله وقد جعل الرسول (ﷺ) نفسه القدوة في ذلك حين قال (وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث عبد المطلب...)

والنفس الإنسانية معززة مكرمة عند الله تعالى ولذلك فلا يجوز قتلها إلا في حالات حددها الشرع الإسلامي الحنيف وهي(٢) الزاني المحصن(٣) قاطع الطريق الذي يروع المسلمين ويخيفهم ويسلب أموالهم ويقتلهم(٤). المرتد والخارج على جماعة المسلمين وفي كل هذه الحالات لا ينفذ حكم القتل إلا القاضي أو من ينيبه عنه للقيام بذلك.

ب ـ تحريم الربا الذي ورد في تحريمه النص القطعي (وأحل الله

البيع وحرم الربا)[1] ذلك إن الربا فيه استغلال للضعفاء والفقراء وفيه تجميع للأموال في يد فئة تصبح بواسطته هي المتحكمة والمتنفذة والمتسلطة والمحتكرة بينما المجتمع الإسلامي مجتمع الوحدة والتكافل لا يمكن أن يرضى بهذا الأسلوب.

إن الربا يهدم بنيان المجتمع ويثير البغضاء والشحناء والكراهية فيما بين أبنائه وذلك ينتج عنه حرمان الضعفاء والمساكين وهم الكثرة، وتقوية لفئة قليلة ولذلك حذرنا النبي (ﷺ) من التعامل أو العمل بالربا وجعل نفسه عليه السلام القدوة في ذلك كي يتبعه بقية المسلمين (وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله).

ولحرص النبي (ﷺ) على حقوق الناس فقد بين إن للمرابي أن يسترد رأس ماله فقط وألا يعود للربا أبداً لأن الإسلام يجب ما قبله وهذا منتهى العدل والموضوعية وقمة الكياسة التي يحتاجها أبناء المجتمعات على أسس سليمة وصحيحة.

هـ ـ تأدية الأمانات إلى أصحابها كاملة غير منقوصة عندما يطلبها أصحابها فإذا شاع الأمن والإستقرار في المجتمع واطمأن الجميع إلى حقوقهم ازدهر المجتمع وتطور أما إذا شاع في المجتمع عدم الإستقرار والإطمئنان وخاف الناس على أموالهم ومصالحهم اختل ميزان المجتمع وبدأ يتدهور.

فالأمانة عبء ثقيل لا يقوى على حمله إلا الإنسان «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان».

٢ ـ **الفكرة الثانية**: يحذرنا الرسول الكريم من أن نتبع الشيطان أو وساوسه خاصة وأن الشيطان يحاول وبشتى السبل التزيين للنفس الإنسانية

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥.

أعمالها كي تقع في الخطأ والزلل وبعد ذلك يتخلى عنها ويبتعد والشيطان يستعمل أساليبه كي يغرر بالإنسان أو تزينة ، ولا يتبع هوى النفس ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربي .

وعلى الإنسان المسلم أن يحذر الإستهانة بالأشياء لأن أعظم النار تأتي من مُستصغر الشرر وهكذا يأتي الإنسان بالكبائر بعد أن يستهين بالصغائر. فالرسول الكريم يعلن للمسلمين أن الشيطان لا يمكن أن يعيد سلطانة عليهم في تلك الديار المقدسة ولن يكون للشيطان في تلك الديار أي سلطان باذن الله تعالى حيث أن الفتنة في الدين هي من أشد الفتن التي حذرنا منها الرسول الكريم .

٣ ـ **الفكرة الثالثة** : يحذر الرسول الكريم المسلمين من محاولة الخروج عن تعاليم الله تعالى بتحليل ما حرم أو تحريم ما حلل . وعليه فلا يجوز التلاعب بالأشهر الحرم وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ومحرم ورجب فلا يجوز القتال أو الإعتداء فيها أما إذا قوتل المسلمون فيها فعليهم الرد بالمثل ولا يجوز العودة إلى الأعمال الجاهلية بتقديم هذه الأشهر أو تأخيرها كما يريدون وذلك كي يطمئن الحجيج إلى حجهم ويؤدوا مناسكهم دون خوف أو وجل وعليه فلا يجوز لمسلم أن يحل حراماً أو يحرم حلالاً خدمة لشهوته أو طمعاً في الإعتداء وتحقيق النصر على عدوه مستغلاً أيام الحج والأشهر الحُرُم.

ولتأكيد هذا المفهوم من وجوب احترام حرمة تلك الأشهر ذكر الرسول الكريم للمسلمين عدد الشهور وحدد لهم الأشهر الحرم منها كي لا يدعي إنسان عدم معرفتها أو محاولة تغيير مواقيتها .

وقد كان العرب في الجاهلية إذا أقبلت الأشهر الحرم في إحدى السنوات وأرادوا القتال فيها أجلوا حرمتها إلى العام القادم حتى يتمكنوا من القتال فيها في سنتهم تلك .

فبين لهم الرسول (ﷺ) أن ذلك زيادة في الكفر أي أنه ليس كفراً فقط

بل هو زائد على الكفر ويجب على العرب بعد إسلامهم التوقف عنه والإبتعاد عن إتيانه .

الفكرة الرابعة : وفي هذه الفقرة من خطبته عليه السلام يتحدث عن اللبنة الأولى في بناء المجتمع القوي المتماسك ألا وهي الأسرة وحقوق وواجبات كل من الزوج والزوجة على الآخر فللرجل على زوجته :

١ ـ ألا تدخل أحداً بيته إذا علمت أن زوجها يكره هذا الشخص ولا يرحب به في بيته .

٢ ـ أن تحافظ الزوجة على نفسها وبيتها فالعفة والطهارة شرط أساسي لبناء الأسرة على أساس قوي ومتين أما إذا ساد العلاقة نوع من الشك أو الريبة فإن الأسرة وهي اللبنة الأولى في المجتمع يصيبها الضرر والخلل .

وإذا أخلت بهذه الشروط فقد بين الرسول الكريم أن معالجة الأمر يكون على النحو التالي وبالتدريج :

١ ـ هجر الزوجة في المضاجع بأن ينام في مكان آخر غير مكان نومها وفي هذا أشعار من جانب الزوج لزوجته بغضبه وعدم قبوله لسلوكها وأن عليها أن تعدل عما هي فيه وأن تمتثل لأوامر الزوج الشرعية .

٢ ـ فإذا لم ترتدع الزوجة بعد ذلك أجاز الشرع للزوج أن يضربها للتأديب والردع وليس بقصد الإيلام والقسوة عليها كي تمتثل وترتدع فإن امتثلت وتوقفت عن غيها فلها على الزوج حقوقها التي بينها الرسول الكريم في خطبته وهي :

أ ـ رزقها أي الإنفاق عليها دون إسراف وتبذير أو بخل وتقتير بل وساطاً بين ذلك دون أن يكلف نفسه فوق طاقتها واحتمالها فالله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

ب ـ كسوتها بالمعروف أي دون إسراف أو تقتير وأن يكون اللباس مما يرتضيه الشرع ساتراً لعورتها يحفظ عليها دينها وخلقها .

جـ ـ المعاملة الحسنة والمعاشرة الطيبة واحترامها وتقديرها فهي أمانة في عنق الرجل وضعيفة كالأسير تحتاج إلى كل عون ومساعدة.

الفكرة الخامسة: ـ يؤكد الرسول الكريم في هذا الجزء من خطبته على أمور هامة هي جماع وخلاصة خطبته عليه السلام وهي:

١ ـ إن اعتصام المسلمين بقرآنهم وسنة نبيهم هو الضمان الوحيد لوحدتهم وهدايتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة وإن الإحتكام إليها هو الضمانة الوحيدة لسيادة العدل بين الناس ورفع الظلم عن المظلومين وإعطاء كل ذي حق حقه وبدونهما تسود الفرقة ويتشتت الشمل وينفرط عقد الأمة وتضيع الحقوق.

٢ ـ أنه لا يجوز للمسلم أن يؤاخي أحداً إلا مسلماً مثله فلا إخوة إلا بين المسلمين والمسلمون إخوة دماؤهم وأموالهم عليهم حرام فلا يجوز للمسلم أن يأخذ من أخيه إلا ما هو حق له أو إذا أخذه هدية عن طيب نفس دون خجل أو إكراه لأنه إن كان كذلك فهو ظلم وغصب لحقوق الغير لا يجيزه الإسلام ولا يصح أن يقع بين المسلمين.

وفي ختام الخطبة طلب الرسول الكريم من الحاضرين أن يبلغوا هذه الوصايا والتعليمات للغائبين فشهد الحاضرون بذلك فقال عليه السلام اللهم أشهد أي اللهم أشهد أنني قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة وتركت الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها.

هذا ولا يجوز أن يقتصر الإبلاغ والتبليغ على المسلمين الحاضرين للخطبة والغائبين عنها لتلك الأيام فقط بل أنه تبليغ يلزم المسلمين كافة في كل زمان ومكان وفي كل وقت وحين فواجب المسلمين دائماً هو التناصح والتذاكر فيما بينهم في كل أمر يعرضون له في حياتهم اليومية في كل زمان ومكان.

الخصائص الفنية لخطبة الرسول (ﷺ):

١ ـ تبدأ بالتحميد والثناء على الله تعالى وهذه سمة تشترك فيها جميع

الخطب في صدر الإسلام وإذا ما خلت الخطبة من التحميد أطلق عليها إسم «بتراء» .

٢ ـ التأثر بأسلوب القرآن الكريم من حيث الإستدلال والتركيز على الحجة والإقناع والتأثير في السامعين لدفعهم إلى الإيمان والتصديق .

٣ ـ الإقتباس من القرآن الكريم باللفظ أو المعنى أما الخطب التي لا تقتبس من القرآن فسميت «شوهاء» .

٤ ـ كانت ألفاظها سهلة وأسلوبها متين وقوي مع تجنب السجع وإيراد الحكم ، كيف لا؟ وقد أوتي عليه السلام جوامع الكلم .

٥ ـ اشتمالها على التعاليم الدينية والنصائح القويمة ، ووضعها الأسس القويمة لبناء المجتمع الإسلامي الحديث ودولته الفتية .

٦ ـ التنويع في داخلها بين الإيجاز والأطناب وبين الترغيب والترهيب وبين التحليل والتحريم وفيها التوازن والمقابلة بين الجمل والعبارات لجذب الإنتباه وتعميق التأثير وسرعة الإستجابة .

اللفظ والمعنى :

١ ـ أبرز ما ميز ألفاظ الخطبة ومعانيها هو السهولة والوضوح وذلك لأن الخطبة موجهة إلى الناس عامتهم وخاصتهم دون استثناء وعليه كان من صميم الحكمة والتوفيق الإلٰهي أن تأتي ألفاظه عليه السلام على هذا النحو من السهولة والوضوح ومن القوة والمتانة بعيدة عن التكلف أو التصنع أو المبالغات المقيتة التي تقلل من شأنه النص الأدبي .

٢ ـ جاءت ألفاظه ومعانيه عليه السلام متأثرة بالقرآن الكريم ولذلك فقد اكتسبت سحراً وتأثيراً في نفوس السامعين الأمر الذي دفعهم إلى الإسراع في إبلاغ وصاياه عليه السلام.

العاطفة :

لم يكن للعاطفة نصيب كبير في هذه الخطبة لأنها تركز على مجموعة من

التعليمات والأنظمة التي أراد الرسول (ﷺ) أن يبلغها المسلمين قبل رحيله حرصاً منه عليه السلام على وحدة المجتمع المسلم، ولذلك لم تظهر في النص إلا عاطفة الحرص من جانب الرسول الكريم على الأمة الإسلامية.

الأسلوب:

١ ـ اعتمد الرسول (ﷺ) أسلوباً عقلياً قائماً على إيراد الحقائق ومخاطبة العقل كي يميز بين الحق والباطل وبين الغث والسمين.

٢ ـ اعتمد الرسول الكريم أسلوباً موسيقياً مؤثراً ليشد انتباه السامعين إلى أقواله وقد تأتى له ذلك من خلال المقابلة والموازنة بين الجمل والعبارات مع قلة التقديم والتأخير والحشو.

٣ ـ كان أسلوبه عليه السلام قوياً متيناً حيث اعتمد الجمل الفعلية أكثر من غيرها ليكسب النص قوة وتأثيراً كما اعتمد المزاوجة بين الخبر والإنشاء ولم يتح المجال للعاطفة للظهور كثيراً أو للخيال أن يحلق بل بقي بسيطاً وفق ما اقتضاه الحال.

٤ ـ إن أسلوبه عليه السلام قد أعجز العرب وهم أئمة الفصاحة والبيان عن أن يقلدوه كيف لا.... وهو النبي الكريم المؤيد بوحي الله في كل ما ينطق أو يفعل أو يقرر «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى».

الفصل الخامس

الرّسائل في صدر الإسلام

رسالة الخطاب في القضاء

كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء

بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وشغلته شؤون الدولة العامة وسياستها العليا عن النظر في خصومات الأفراد كان أول عمل صنعه أن فصل قضاء المدينة عن سلطته وأقام أبا الدرداء عليه وخصه بإسم القاضي) ولما تم تمصير الكوفة والبصره وأقام العرب فيهما وكثرت المنازعات بين أفرادهما جعل قضاء الكوفةلشريح وقضاء البصرة لأبي موسى الأشعري وقضاء مصر إلى قيس بن أبي العاص فكان عمله هذا أول خطوة في تنظيم السلطات وفصل بعضها عن بعض.

وكتب إلى أبي موسى الأشعري رسالة في القضاء والتي تعتبر قطعة من أدب القضاء خالدة على مر الزمان يقول فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضه محكمة وسنة متبعه، فافهم إذا أدلى إليك وأنفذ إذا تبين لك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. وآسى بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى، واليمين على من انكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراماً، أو حرم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضية بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه إلى رشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج

في صدرك مما ليس في كتابٍ ولا سنة. ثم اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك بنظائرها، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجهت القضاء عليه، فإنه انفى للشك واجلى للعمى. المسلمون عُدول بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنينا في ولاءٍ أو نسب، فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان. وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر. فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس. ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته والسلام».

«الفاروق»

«اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين» هذه مقولة الرسول الكريم في عمر تنبىء عن أهمية هذا الرجل في بناء صرح الإسلام وتأسيس دولته القوية المنيعة، فهو قوي في جاهليته وإسلامه هاجر الناس سراً وهاجر هو جهاراً نهاراً متحدياً قريش وحلفاءها أما قبل إسلامه فقد تولى السفارة بين قريش وغيرها من قبائل العرب فلما أسلم لزم الرسول (ﷺ) يتلقى عنه كل ما يوحيه الله إليه ويقف على سننه وقضائه بالإضافة إلى توليه القضاء بنفسه في العهد الأول من خلافته. هذا علاوة على ما تميز به الفاروق من فراسة صادقة ومقدرة عظيمة على معرفة الرجال فقد ولى شريحاً قضاء الكوفة نحواً من ستين سنة وذلك لأنه رأى فيه القاضي العدل الذي لا يفرق بين سيد وعبد أو حاكم ومحكوم، فقد حكم شريح لرجل ضد عمر لأن عمر أراد أن يشتري دابه لرجل فعطبت الدابة في أثناء تجريب عمر لها فاحتكما لشريح فقال شريح لعمر: يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت: فقال عمر وهل القضاء إلا هكذا: وأقام شريحاً على قضاء الكوفة.

كان عمر لا يفرق في عدله بين أمير وسوقة ولا بين وال ورعية فهذا محمد بن عمر بن العاص يضرب أحد المصريين ويقول له خذها وأنا ابن الأكرمين، فيبلغ الخبر إلى الفاروق عمر فيأمر بإحضار محمد وأبيه ويقول للمصري، دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين حتى إذا فرغ المصري من الضرب قال له عمر «أجلها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك ابنه إلا بسلطانه»

هكـذا كانت عدالة الفـاروق وهكذا كان الحساب عنده لا فرق عنده بين وال أو رعية أو عامة أو غني أو فقير أو حاكم ومحكوم.

ولذلك كان يقول «إن الناس لا يزالون مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم». وكان يعتبر نفسه المسؤول عن كل ظلم يقع أو أمر يحدث في أرجاء الدولة الإسلامية فنراه يقول «أي عامل ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته».

وقد اجتمعت لعمر صفات الزهد والرأفة والرحمة والعدل فحببته إلى الناس وهونت عليهم شدته وغلظته وكانت له مع كل تلك الصفات صفة الهيبة والوقار تجعل الولاة وعليّة القوم يهابون مجلسه أو عرض مطالبهم عليه.

وكان عمر يجمع عماله بمكة في مواسم الحج ليحاسبهم ويسألهم عن شؤون الرعية.

الأفكار الرئيسية في الرسالة:

١ ـ الفكرة الأولى من قوله (بسم الله الرحمن الرحيم. . . إلى قوله. . . ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل) وفيها يبين الفاروق أهمية القضاء وآدابه وشروطه.

٢ ـ الفكرة الثانية من قوله رضي الله عنه «الفهم الفهم. . . إلى قوله. . . وأبلغ في العذر».

وفيها يبين للقاضي كيفية الفصل فيما لم يرد فيه حكم في الكتاب أو السنة وكيفية التعامل مع المدعي.

٣ ـ الفكرة الثالثة من قوله رضي الله عنه «المسلمون عدول. . . إلى قوله. . . في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام».

وفيها بيان لشروط الشاهد العدل ولما يجب أن يتحلى به القاضي.

الشرح

الفكرة الأولى :

يبدأ الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه كتابه هذا بأبرز ما تتميز به الرسائل في صدر الإسلام وهو افتتاحها بالبسملة لأن كل خطبة أو رسالة لا تبدأ بها كانت مبتورة وشوهاء غير كاملة ثم اتبع ذلك بقوله من عبد الله عمر ليبين أن الحاكم والمحكوم هما عباد الله مهما بلغت منزلة أي منهما فالعبودية لله وحده وكلنا عباد الله ولا فرق بين خليفة أو وآل أو واحد من عامة الناس ثم يبين لأبي موسى أنه إنما يبعث له بهذه الرسالة وهذه التعليمات والتوجيهات في القضاء لأنه أمير المؤمنين المسؤول عن مصالحهم في الدنيا والمسؤول عن أعماله وعن رعيته أمام الله تعالى «فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» وقد ساوى الخليفة في العبودية بينه وبين قاضية فقال من عبد الله عمر.. . إلى عبد الله ابن قيس ثم بين له بعد ذلك أهمية القضاء ومنزلته في الإسلام فهو فريضة واجبة وسنة عمل بها من قبله ثم بدأ بعد ذلك بإيراد مجموعة من التوجيهات لقاضيه والتي يجدر بكل قاضي أن يتحلى بها ويتخلق بما جاء فيها فعليه: (١) أن يفهم القضية التي تعرض عليه فهماً دقيقاً وعميقاً لا يخالطه الشك فإذا تحقق له ذلك فعليه أن يحكم في القضية دون تردد أو خوف ودون أن تأخذه في الله لومة لائم لأن الحديث عن عدالة القضية دون أقرارها وتنفيذ الحكم فيها يسقط الحق ويضربه فينتشر الظلم وتعم الفوضى في المجتمع وهذا أخشى ما يخشاه الفاروق عمر أمير المؤمنين.

(٢) المساواة بين المتخاصمين في (وجهك) أي في النظر إليهما بحيث

لا يجوز أن تنظر إلى أحدهما أكثر من الآخر أو أن تكون نظراتك لأحدهما نظرات الرضا والقبول واللآخر نظرات الإنكار والرفض قبل أن تسمع منهما كما يجب عليك المساواة بينهما في الأسئلة وفي الأجوبة وتعطي كل طرف الحق والزمن الكافي لإبراز حجته والدفاع عن نفسه أو عرض قضيته دون أي تمييز بين طرف وآخر كما يجب المساواة بينهما في (مجلسك) أي لا يجوز أن تقرب أحداً من مجلسك وتبعد الآخر أو أن تجلس أحداً دون الآخر بل عليك أن تساوي بينهما في الجلسة فلا يجلس أحدهما على فراش وثير والآخر على فراش حقير لأن ذلك يؤدي إلى أن ييأس أحد الطرفين وهو المجافي من قبلك من عدلك ولا يثق بحكمك لأنك فضلت خصمه عليه قبل سماع قضيته، كما أن ذلك يؤدي إلى أن يطمع الطرف الآخر الذي فضلته على خصمه في الجلسة أو النظر في أن تميل لجانبه وتحكم له وهذا يجعله يتجرأ عليك في الكلام أو المناقشة.

(٣) وضع الفاروق للقاضي قاعدة راسخة في القضاء لا يستغني عنها أي قاض ألا وهي «البينة على من أدعى واليمين على من أنكر» هذه الكلمات الموجزة من أبلغ ما قيل في القضاء على الإطلاق فالمدعى لا بد له من إحضار البينة والأدلة ليثبت صحة دعواه وإذا أنكر الخصم ذلك فيتوجب عليه اليمين كي يثبت إنكاره ويبطل دعوى خصمه.

(٤) على القاضي أن يبذل جهده للصلح بين المسلمين ذلك أن العقوبة في نظر الإسلام ليست غاية في حد ذاتها بل هي وسيلة للردع وإعادة الحق وإشاعة الأمن والاستقرار كي ينمو المجتمع ويزدهر ولهذا كان قوله تعالى: ﴿ . . . **إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم**﴾[1]. وقوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ **فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾.

غير أن الصلح يجب أن يكون وفق مبادىء الإسلام وتعاليمه فلا يجوز

(١) سورة الحجرات آية ١٠.

الصلح إذا تعدى حدود الله أو حلل حراماً أو حرم حلالاً ولـذلك لا يجـوز الصلح عن طريق أكراه الطـرف الضـعيف أو تخويفـه أو باطالـة البـت في القضايا ليعجز الفقير عن متابعتها أو ليفقد الأمل في إرجاع حقه فيرضى بالصلح مكرهاً مرغماً وقد ضاع حقه .

أو إذا كان الخلاف أو الخصام على شيء محـرم فلا يجـوز الصلـح بإقرار الحرام فكله باطل ومنكر أصلاً .

(٥) «كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون» صدق رسول الله ولما كان القاضي بشـراً فهـو معـرض بين الحين والآخـر لزلل والخطـأ فإذا تبين للقاضي خطأ حكمه في قضية لا جرم عليه أن يعود عنها ويقـر الحـق الـذي توصل إليه بعد طول البحث والتدقيق أو بعد أن ظهرت أدلة جديدة أظهرت وجه الحق للقاضي فالرجوع إلى الحق خير من أن يصر القاضي على حكمه الخاطىء الذي ظلم به صاحب الحق وليس ذلك عيباً كما أنه لا ينقص من قدرة بل يكبر من شأنه ويعظم عند الله من أجره .

وفي قوله «فإن الحق قديم» دلالة على أن واجب القاضي الأول والأخير وغايته المنشودة هو البحث عن الحق والوصول إليه فمتى وصل إليه واستيقن منه فيجب عليه أن يقره ولو بعد حين لأن الحق قديم واصيل ومنشود في كل الأحوال .

الفكرة الثانية :

ويتابع الفاروق توجيهاته الرائعة إلى قاضيه وإلى القضاة في كل عصر وجيل فيبين لقاضيه القاعدة السادسة التي يتوجب عليه أن يراعيها في قضائه وهي (٦) لزوم الفهم والحذر والتريث وعدم التسـرع في كل قضية تعـرض عليك لم تجد لها حكماً في كتاب الله أو سنة نبيه (ﷺ) فعليك في هذه الحالة أن تبحث عن قضية تشبه أو تماثل هذه القضية ولها حكم في كتاب الله أو سنة نبيه (ﷺ) وعندها عليك أن تقيس هذه القضية التي لم ينزل فيها حكم على تلك القضية التي تشبهها ولها حكم في كتاب الله أو سنّة نبيه (ﷺ) وهذا هو المعروف

بالقياس فهو قياس مسألة أو الحكم في مسألة لم يرد فيها نص بمسألة ورد فيها نص لعله مشتركة بينهما والقاضي هنا يختار أقرب المسائل إلى الله فلا يظلم الناس ويتوخى العدل والإنصاف فيما يحكم ويحرص أن تكون المسألة أقرب إلى الحق وأدنى إلى الصواب.

لأنه كما قلنا سابقاً غاية القضاء هي أحقاق الحق ورفع المظالم واستقرار المجتمع ونمائه.

(٧) إن على القاضي ألا يطيل البت في القضايا وإصدار الأحكام بل عليه أن يحدد زمناً للمدعي يقدم خلاله أدلته وشهوده وكل ما يثبت صحة دعواه حتى يتمكن القاضي من دراستها والنظر فيها فإن أحضر البينة خلال المدة المحددة واقتنع القاضي بصحة الأدلة والشهود قضي له وإلا سقطت قضيته وبطلت دعواه.

ففي تَحديد الزمن الكافي للمدعي إعطاء كل ذي حق حقه كما أن فيه فرصة للقاضي للدراسة والتفكير وإعادة النظر وفيه أيضاً قطع للألسنة وإبطال للإعذار فلم يعد بعد مضي الوقت المحدّد أي عذر للمدعي في دعواه.

الفكرة الثالثة:

ويستمر أمير المؤمنين في توجيهاته إلى قاضيه فيقرر له:

٨ ـ أن جميع المسلمين عدول لا يشك في صحة أقوالهم فهم متساوون أمام القضاء لا فرق بينهم ولذلك يحق للمدعي أن يحضر شهوده من بين جميع المسلمين وقد استثنى الفاروق من هؤلاء:

أ ـ أي إنسان جلد لارتكابه حداً من حدود الله كأن شرب الخمر أو سرق أو زنى أو ارتد أو قطع الطريق أو اتهم المسلمات العفيفات في شرفهن أو أفسد بين المسلمين والفتنة أشد من القتل.

فإن كان الشاهد من بين هذه الأصناف فلا تقبل شهادته جزاء له على ما ارتكب وتشهيراً به بين المسلمين.

ب ـ لا تقبل شهادة أي إنسان شهد الزور من قبل لأنه ليس ثقة حتى يشهد ولذلك وجب نبذه من المجتمع الإسلامي ورفض شهادته.

ج ـ كما لا تقبل شهادة كل من دارت الشبهات حول نسبه أو ولائه لقوله (ﷺ): (ملعون ملعون من انتمى إلى غير أبيه، أو ادعى إلى غير مواليه).

ولذلك كل إنسان لا يثبت نسبه أو لا يعرف مواليه لا مجال لقبول شهادته لأنه ظنين ومشكوك فيه فكيف يثبت حقاً للآخرين إن لم يستطع أن يثبت نفسه هو؟

٩ ـ قرر الفاروق لقاضيه أن للقاضي أن يحكم على الظاهر وما يقدم له من أدلة وإثباتات أما بواطن الأمور وما تشتمل عليه النفس الإنسانية فهذا موكول إلى الله تعالى ولذلك كان الرسول (ﷺ) يحذر في قضائه من أنه أن قضى لأحد من أخيه دون حق فهي قطعة من النار. فللقاضي الحكم على ظواهر الأمور وأن رأى خلاف ذلك لأنه لا يملك عليه الدليل ولذلك كان اليمين من المدعي عليه كافياً لإبطال دعوى المدعي إذا لم تكف الأدلة. وعلى القاضي أن يدرأ ويدفع الحدود بالشبهات، فأي حد فيه شبهة أو شك لا يجوز تنفيذه.

١٠ ـ بين الفاروق لقاضيه ما يجب على القاضي أن يبتعد عنه من مثل ضيق الصدر بالمتخاصمين والسأم والملل منهم لأن ذلك يوحي لهم بعدم الاهتمام بقضيتهم فتذهب الثقة بالقاضي والقضاء وتضيع الحقوق ويشيع الظلم بين الناس.

وعليه ألا يظهر عدم الاستعداد لبحث القضايا المعروضة عليه بتأجيلها وعدم البت فيها بل يتوجب عليه أن يحق الحق ويظهره أن تبين له ذلك دون تردد فإن له في ذلك عظيم الأجر والثواب من الله تعالى لأنه أنصف المظلوم وردع الظالم ولذلك كان جزاؤه عند الله عظيماً وكفاه الله ما بينه وبين الناس فأذهب عنه كيدهم وغيظهم فاحترموه ووقروه لعدله وإنصافه.

١١ ـ على القاضي ألا يظهر من نفسه ما ليس في طبعه فلا يجوز التكلف أو التظاهر بما ليس فيه فعمله تكليف لا تشريف وواجب ثقيل لا يقوى على حمله إلاّ المؤمن الصادق فلا يظهر للخصوم الهيبة الكاذبة أو التعالي الزائف بل يجب عليه أن يكون راعياً للأمة محافظاً على حقوقها ناشراً العدل بينهم ليجزيه الله تعالى خير الجزاء فيعجل ويجزل له الجزاء في الدنيا ويفيض عليه من خزائن رحمته في الآخرة.

الخصائص الفنية لرسالة عمر بن الخطاب :

١ ـ تبدأ بالبسملة وذكر اسم المرسل والمرسل إليه على عادة كتاب الرسائل في صدر الإسلام.

٢ ـ وضوح المعنى والغاية والهدف مع الإيجاز والبعد عن الأطناب والتفصيل.

٣ ـ ذكر (أما بعد) ثم الانتقال بعدها للحديث عن الغرض من كتابه ممثلاً في مجموعة من توجيهاته ـ أمير المؤمنين ـ إلى قاضيه والقائم على حل المشكلات وفض الخصومات بين أبناء أمته.

٤ ـ تبدأ بالسلام وتختتم بالسلام.

٥ ـ الترتيب والتسلسل المنطقي في الفقرات والجمل والعبارات.

٦ ـ تعتبر هذه الرسالة وثيقة متقدمة في العدل والمساواة بين المتخاصمين، كما تعتبر قمة في الموضوعية والتجرد والبعد عن الذاتية والنوازع الشخصية في القضاء مما يحتاجه كل قاض، حريص على مصلحة الأمة وتحقيق العدل وتنفيذ أمر الله.

اللفظ والمعنى :

١ ـ جاءت ألفاظه عربية فصيحة تخلو من أي ضعف أو ركاكة.

٢ ـ تميزت ألفاظه بالقوة والوضوح لأن الفاروق حريص على الأفهام وتوضيح المطلوب، مع أكساب الرسالة جوا من القوة كي يسارع القاضي إلى

العمل بها لأهميتها ولزوم الأمر في تأديتها.

٣ ـ أكثر الفاروق في رسالته هذه من المترادفات وذلك لإفادة التوكيد، وزيادة الفهم، وتوضيح الأمر كل ذلك يدلنا على مدى اهتمامه (رضي الله عنه) بالقضاء والأهمية التي يوليها لهذه الوظيفة الخطرة.

العاطفة والخيال:

١ ـ لا نظن أن نصاً تشريعياً في مجال القضاء يحتاج إلى خيال واسع ومجنح أو إلى عاطفة قوية ظاهرة.

فالنص يتوجه فيه الخطاب إلى العقل والضمير كي يشتركا معاً في فهم النصوص القضائية وحسن تنفيذها وسلامة تطبيقها في واقع المجتمع الإسلامي.

٢ ـ غير أنه بالإمكان القول أن عاطفة الحرص على مصلحة المسلمين وعاطفة الخوف من الله يوم القيامة حين يسأله عن المسلمين ورعايتهم هي التي دفعت الخليفة إلى كتابة هذه الرسالة ولعل التكرار والألفاظ القوية وصيغ الأمر الكثيرة في الرسالة تؤيد ما ذهبنا إليه في حرص الفاروق عمر على مصلحة الأمة التي يرعى شؤونها.

الأسلوب:

١ ـ أول ما يميز أسلوب الفاروق هو قوته الملحوظة وقد جاءته القوة من ألفاظه وعباراته وجمله التي غلبت عليها صيغة الأمر والجمل الفعلية، وبعده عن الحوار والتقديم والتأخير.

٢ ـ كان أسلوبه رضي الله عنه من السهولة والوضوح ما يجعل الإنسان العادي يفهم مراده ويتخيل مقدرته على تقليده غير أنه سرعان ما يكتشف كذب تخيله فهو سهل ممتنع وبسيط صعب التقليد كيف لا وعمر مشهود له بسلامة الذوق وفصاحة القول، وعلو الهمة منذ العصر الجاهلي.

٣ ـ وما زاد في قوة أسلوبه ووضوحه هو بعده عن المحسنات البديعية وكل ما جاء منها في الرسالة كان عفو الخاطر دون استكراه أو تكلف أو تصنع ، كما اعتمد المقابلة والموازنة بين الجمل والعبارات من حيث الطول والقصر مما أكسب الأسلوب قوة وجمالاً .

الفصل السادس

مِنَ الشِّعْرِ الأُمَوِي

عمر بن أبي ربيعة

أبرز خصائص الشعر
في
العصر الأموي
(٤٠ - ١٣٢ هـ/ ٦٦٠ - ٧٤٩)

١ - «لم يكن للشعر العربي تأثير في النفوس ومنزلة في الدولة . . . مثل ما كان له في العصر الأموي» بهذه العبارة وصف جورجي زيدان ازدهار الشعر وانتشاره في العصر الأموي بحيث أقبل على الشعر في هذا العصر مختلف العناصر من الخلفاء والولاه والقوّاد إلى الفقهاء والمحدثين إلى النساء وعامة الناس وقد انطلقت المرأة في هذا العصر تعقد مجالس الأدب والشعر بل وتفاضل بين الشعراء وتساجلهم فكان الشعر حديث الناس وزينة العصر ولما كان أمره كذلك أصابه الكثير من التحريف أو الاتلاف ولذلك نسب إلى العذريين الكثير من الشعر كما نسب إلى شاعرنا عمر وفي قصيدته الرائية موضوع الدراسة بضعة عشر بيتاً قالها في وصف الناقة، ولذلك كان الشعر في هذا العصر حديث الناس فكان لفظه ومعناه بسيطاً قريباً إلى الأفهام بعيداً عن التكلف والتعقيد قريباً من اللغة الدارجة عند العامة ومما زاد في هذا الأمر هو ظهور طبقة المولدين في هذا العصر وهم الطبقة التي وجدت نتيجة تزاوج العرب بغير العرب من الفرس والروم فنشأ جيل من المولدين أقبل على اللهو أكثر من غيره.

٢ - من حيث العاطفة الشعرية ، غلب على عاطفة الشعر في هذا العصر التكلف والبعد عن الصدق والرياء وذلك لكثرة البلاط الذي قيل فيه الشعر عند الخلفاء والأمراء والولاة والقادة وغير هؤلاء من ذوي السلطان والنفوذ، وقد حرص الشعراء على حياة الترف وعطايا هؤلاء فتكلفوا في مدحهم أو الفخر

بانتصاراتهم أو الحديث عن أنسابهم وأصولهم . هذا هو الطابع العام أما من حيث التخصيص فقد وجد الشعر الصادق الذي يصدر عن نفوس مؤمنة وصادقة ويمثل هذا النوع من الشعر الشعراء الفقهاء والمحدثون وبعض شعراء الفرق الإسلامية.

٣ ـ من حيث الأغراض الشعرية ، وجدت أغراض جديدة للشعر في هذا العصر إلى جانب الأغراض القديمة التقليدية ، حيث وجد الشعر السياسي الذي دافع به الشعراء عن حق بني أمية في الحكم دون غيرهم ، هذا بالإضافة إلى أن الأغراض الشعرية التقليدية القديمة حصل في مضمونها نوع من التغير بما يتناسب وحياة الترف واللهو في هذا العصر وما شهده من تقدم في مختلف مناحي الحياة حيث القصور والحدائق والأنهار والأثاث والغواني والجواري وغير ذلك مما جد في هذا العصر وكان على الشعراء أن يتحدثوا عنه ، هذا بالإضافة إلى شعر الفرق الإسلامية التي تدعوا فيه لمبادئها وتدافع عن نفسها بالحجج والبراهين والأدلة الكثيرة مثل شعر العلويين كالكميت بن زيد وشعراء الزبيديين وعلى رأسهم عبيد الله بن قيس النرقيات وشعراء الخوارج كالطرماح.

٤ ـ من حيث الأسلوب: تميز أسلوب الشعر في هذا العصر بالرقة والسهولة وذلك لأنه يعبر عن روح الحضارة ويعكس ما لها من مظاهر مختلفة وهذا الأثر الحضاري انعكس على ألفاظ الشعر ومعانيه حيث أصبحت رقيقة وعذبة سهلة وواضحة لا تحتاج إلى شرح أو توضيح فابتعدت عن التعقيد والغرابة أو الخشونة والقوة ، لأن الصفة العامة لهذه الحياة الجديدة هي الرقة والسهولة والتحضر والتقدم في مختلف مناحي الحياة. ولم يكن جميع الشعر الأموي على هذه الشاكلة بل وجد الشعر القوي الخشن الذي يعكس جياة البداوة ومن أبرز من يمثل هذا الاتجاه هم شعراء النقائض الثلاثة وشعراء العراق بوجه عام.

«الرائية الكبرى»

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فَمُبْكِرُ   غَداةَ غَدٍ أمْ رائحٌ فَمُهَجِّرُ[١]

٢ - بِحاجةِ نفسٍ لم تَقُلْ في جوابِها   فتُبْلِغَ عُذْراً والمقالةُ تُعْذِرُ[٢]

٣ - تهيمُ إلى نُعْمٍ فلا الشَّمْلُ جامعٌ   ولا الحَبْلُ موصولٌ ولا أنت مُقْصِرُ[٣]

٤ - ولا قُرْبُ نُعْمٍ إن دنتْ لك نافعٌ   ولا نأيُها يُسْلي ولا أنت تَصْبِرُ[٤]

٥ - وأخرى أَتَتْ من دون نُعْمٍ ومِثْلُها   نهى ذو النُّهى لو يَرْعَوي أو يُفكِّرُ[٥]

٦ - إذا زُرتُ نُعْماً لم يزل ذو قرابةٍ   لها كُلَّما لاقيتُها يتنمَّرُ[٦]

٧ - عزيزٌ عليه أن أُلِمَّ ببيتِها   يُسِرُّ ليَ الشحناءَ، والبُغْضَ يُظْهِرُ[٧]

٨ - ألِكْني إليها بالسلامِ فإنَّهُ   يُشَهَّرُ إلمامي بها ويُنَكَّرُ[٨]

---

(١) نعم: اسم محبوبته. مهجِّر: من التهجير وهو السير في الهاجرة، وهجَّر إلى الشيء: بكَّر وبادر. الغادي: المسافر في الغداة أول النهار. رائح: من راح بمعنى جاء، أو ذهب في الرواح أي العشي، ويستعمل لمطلق الذهاب والمضي.

(٢) بحاجة نفس «ويروى لحاجة . .» تنازعه كلٌّ من غاد ورائح. وقوله: لم تقل في جوابها فتبلغ عذراً: أي هي في غاية السر لا يجاب عليها عند السؤال. الإعذار: اثبات العذر أو نفيه.

(٣) تهيم وتروى أهيم، وهو من الهيام والشوق، والحبل هو الصلة والعلاقة.

(٤) يرى البديعيون في هذين البيتين مثلاً طيباً لما يسمونه صحة التقسيم وهو استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئاً.

(٥) النهى: جمع نُهية وهي العقل. يرعوي: يكف.

(٦) تنمر: إذا عبس وجهه وكلح وتنكر لصاحبه وأوعده.

(٧) ألمّ بالقوم: أتاهم فنزل بهم وزارهم زيارة غير طويلة، عزيز عليه: صعب عليه.

(٨) الكني: من الألوكة وهي الرسالة. ولفظه يقضي بأن المخاطب مرسل وأن المتكلم هو الرسول. والعرب إنما تستعمله بمعنى كن رسولي إليها، أفقلبت معناه. إلمامي: لقائي بها، يشهّر المامي وينكر: أي تعرف زيارتي لها وينتشر خبرها بسرعة فيلومني الناس عليها.

٩ - بـآيةِ ما قالـت غَداةَ لقيتُها بمدفَـعِ أكنـانٍ: أهـذا المُشَهَّرُ[١]
١٠ - قِفي فانظري، أسماءُ هل تعرفينه أهـذا المُغـيريُّ الـذى كان يُذْكَرُ[٢]
١١ - أهذا الذي أطريتِ نعتاً فلم يكنْ وعَيْشِـكِ، أنْسـاهُ إلى يوم أُقْبَرُ[٣]
١٢ - فقالت: نَعَـمْ لا شكَّ غَـيَّر لونَهُ سُرى الليلِ يُحْيي نَصَّـهُ والتَّهَجُّرُ[٤]
١٣ - لَئِـنْ كان إيَّاهُ لَقَـدْ حال بَعْدَنا عن العهـدِ، والإنسـانُ قد يتغيرُ[٥]
١٤ - رأت رَجُلاً أما إذا الشمس عارَضَتْ فَيَضْحـى وأمـا بالعَشِّي فيخصَرُ[٦]
١٥ - أخا سفرٍ جوّابَ أرضٍ تقاذَفَتْ به فلَـواتٌ، فهـو أشعـثُ أغْبَرُ[٧]

(١) الآية: العلامة. مدفع أكنان: اسم موقع بعينه. المشهر: الذى شهر أمره.

(٢) قفى: المتكلمة نعم. وأسماء صاحبتها. المعيرى: المنسوب إلى المغـيرة وهـو جدّه. يذكر: أى يذكر عندنا.

(٣) يعلق صاحب الخزانة على هذه الأبيات «ج ٢ ص ٤٢٠» بقوله: وهذا على طريقته فإنه كثيرا ما يتغزل بنفسه زعماً منه أن المخدرات يعشقنه لحسنه وجماله، وقد عيب عليه، أطريت نعتاً: زدت في مدحه وذكر خصاله وعيشك: قسم.

(٤) نصُّ السُّرى: إسراعه. وأصل نصٍّ: حثّ الدابـة واستخـرج أقصى ما عندهـا من السير، وتروى سه بالسين وتعنى آخره أو منتصفه والتهجر بمعنى الهاجرة واشتـداد الحر، وسـري الليل: هو السفر ليلاً.
يحيي: يبقى قائما الليل كله بلا نوم.

(٥) حال: تغير، من قولهم. حالت القوس أي انقلبت عن حالها التي عمرت عليها وحصل في قلبها اعوجاج. عن العهد: عماعهدناه من شبابه وجماله، والإنسان قد يتغير: مثله قول كُثير عَزة: وقد زعمت إني تغيرت بعدها، ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغير.

(٦) عارضت: أي عارضته، ومعارصة الشمس: ارتفاعها حتى تصير في حيال الرأس. يضحى: يظهر للشمس. قال صاحب الصحاح: ضحيتُ بالكسر «باب فرح» ضَحى «بالقصر»: عرقت وضحيت بالكسر أيضاً «فرح» ضحاءً «بالمد» إذا برزت للشمس. وضَحيتُ بالفتح «باب منع» مثله. والمضارع أضحى في اللغتين جميعاً ويضحى بمعنى يتأخر في النوم. خصر الرجل: آلمه البرد فى أطرافه. والخصر «بالتحريك»: البرد. العشي «والعشية»: من صلاة المغرب إلى العتمة، ويقابلـه: الغداة. ويقال لهما البردان أو الأبردان.

(٧) جواب: مبالغة من جاب الأرض: قطعها. التقاذف: الترامي. الأشعث. وصف من شعث الشعر «باب تعب»: تغير وتلبد لقلة تعهده بالدهن. والشعث: الوسخ، والتفـرق. الأغبـر: الذي علاه الغبار.

١٦ ـ قليلٌ على ظهـرِ المطِيَّةِ ظِلُّهُ سوى ما نفـى عنـه الـرِّداءُ المُحَبَّرُ[١]
١٧ ـ وأعجبهـا مِنْ عَيْشِهـا ظِلُّ غُرْفَةٍ وريَّانُ مُلْتَفُّ الحدائـقِ أخضَرُ[٢]
١٨ ـ ووالٍ كفاهــا كلَّ شيءٍ يُهِمُّها فليســت لشيءٍ آخِـرَ الدهـرِ تسهرُ[٣]
١٩ ـ وليلةَ ذي دَوْرانَ جشَّمَني السُّرى وقـد يُجْشَـمُ الهـوْلَ المُحِـبُّ المُغَرِّرُ[٤]
٢٠ ـ فَبِتُّ رقيبـاً للرِّفـاقِ على شَفاً أحـاذِرُ منهـم من يطـوفُ وأنظُرُ[٥]
٢١ ـ إليهم متى يستمكِنِ النومُ منهمُ ولي مجلسٌ، لولا اللُّبانـةُ، أوعرُ[٦]
٢٢ ـ وباتتْ قَلوصي بالعَـراءِ ورَحلُها لطـارقِ ليلٍ أو لِمَنْ جاء مُعْوِرُ[٧]
٢٣ ـ وبِتُّ أناجي النفسَ أينَ خِباءُها وكيف لِما آتـي مِنَ الأمـرِ مَصدرُ[٨]
٢٤ ـ فـدلَّ عليهـا القلـبَ ريّا عرفْتُها لها، وهوى النفسِ الـذي كادَ يظهرُ[٩]
٢٥ ـ فلمافقدْتُ الصوتَ مِنهم وأُطفِئَت مصـابيحُ شُبَّـتْ بالعِشـاءِ وأنؤُرُ[١٠]

---

(١) المحبَّر: الموشى المخطط، يقول: لا ظل له سوى ظل خفيف ستره رداؤه عن ظهر مطيته. يصف بذلك نحافته وضموره، كما لا يدفع عنه حر الشمس إلا ثوب من الحرير.

(٢) يريد أنها مقيمة لا تظعن ظعنه وأنها في بيتها بين أشجار ظليلة خضراء.

(٣) الوالى: الذى يتولى شؤونها.

(٤) ذو دوران· موضع بين قُديد والجحفة وهو الموضع الذى وقعت فيه المغامرة. حشمنى: كلفنى. وفى رواية. جشمتنى. السرى: سير الليل. يجشم: من حشم «باب سمع» الأمر تكلفه، مثل تجشمه. والمغرِّر «اسم فاعل» من غرر بنفسه: عرّضها للهلكة وحملها على غير ثقة. والمغرَّر «اسم مفعول»: بمعنى الذى عرَّروا به.

(٥) الشفا: شفا كل شىء حده، وبقية الشمس آخر النهار. يريد وقد غابت الشمس أو بقيت منها بقية. ويجوز أن يكون معناه: على إشراف ودنوٍ من الهلاك. أو على حفرة من النار، يكنّى بذلك عن تمكن الغيظ منه بسبب الرفاق الذين يرقبهم.

(٦) إليهم: اقترب منهم. اللبانة: الحاجة من غير فاقة، يريد حاجته إلى اللهو. أوعر: شاق خشن، من شدة الحذر.

(٧) القلوص. الناقه الفتية. العراء المكان الفضاء لا يستقر فيه شىء معور: يريد وهو معور، من أعور لك الصيد إذا أمكنك أن تصيبه. يقول: باتت ناقته مباحة لمستضيف طرقه ليلا ينحرها ويطعم منها، أو لخائف بدت عورته لعدوه يركبها فينجو منها.

(٨) المصدر: الخلاص (مخرج لها مما وقعت فيه).

(٩) الريا: الرائحة الطيبة.

(١٠) أنؤر: جمع نار، والصرفيون يحتجون بهذا البيت على جواز جمع فَعْل المعتل العين على=

٢٦ ـ وغابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أهوى غُيُوبَه ... ورَوَّحَ رُعْيانٌ ونَوَّمَ سُمَّرُ(١)
٢٧ ـ وخُفِّضَ عني الصوتُ أقبلْتُ مِشْيَةَ ... الحُبابِ وشَخصي خشيةَ الحيِّ أزْوَرُ(٢)
٢٨ ـ فَحَيَّيْتُ إذْ فاجأتُها فتَوَلَّهَتْ ... وكادتْ بِمخْفوضِ التحيَّةِ تَجْهَرُ(٣)
٢٩ ـ وقالتْ وعَضَّتْ بالبَنانِ فَضَحْتَني ... وأنتَ امْرُؤٌ مَيْسورُ أمْرِكَ أعْسَرُ(٤)
٣٠ ـ أريْتَكَ إذْ هُنّا عليْكَ ألَمْ تَخَفْ ... وُقيتَ وحولي من عدوِّكَ حُضَّرُ(٥)
٣١ ـ فوالله ما أدْري أتعْجيلُ حاجَةٍ ... سَرَتْ بِكَ، أمْ قَدْ نامَ مَنْ كُنْتَ تَحْذَرُ(٦)
٣٢ ـ فقلتُ لَها: بَلْ قادَني الشَّوْقُ والهوى ... إليكِ، وما نَفْسٌ مِنَ النّاسِ تَشْعُرُ

= أفعُل كما يجمع صحيح العين «كلب أكلب» والقياس أن يجمع المعتل على أفعال «ثوب أثواب، بيت أبيات». وفي أنؤر إن شئت همزت وإن شئت لم تهمز وإنما الهمز لإنضمام الواو، شبت: أشعلت.

(١) قمير: إنما صغره لأنه ناقص عن التمام وهذا في أول الشهر وكذلك يصغر فى آخر الشهر لأن النقصان فيهما واحد، قال عمر.

وقمير بدا ابن خمس وعشري ... ن له قالت الفتاتان قوماً

الألف في «قوماً» منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة. الرعيان: جمع الراعى «راكب وركبان». السمّر. جمع السامر، وهم الجماعة يتحدثون ليلا.

روح: من راح أي رجع في المساء وهذا البيت يدل على أن المغامرة قد وقعت في أوائل الشهر القمري.

(٢) وخفض عني الصوت: في رواية: ونفضت عني العين: أي احترست منه وأمنتها، والتشديد في نفض للمبالغة. ورواية الأغانى: ونفضت عنى النوم. كناية عن تحديد نظره وشدة حذره من الرقباء.

الحباب: الحية، والحية تذكر وتؤنث. أزوَر: مائل منحرف. تجافى الشيء: لم يلزم مكانه ولم يطمئن وفي رواية: ورُكني خيفة القوم.

(٣) تولهت: تحيرت وذهب عقلها، تجهر ترفع صوتها بالتحية.

(٤) الميسور: السهل، الأعسر: الصعب.

(٥) أرايتك: كلمة تقولها العرب عند الإستخبار، بمعنى: أخبرني، تقول أرأيتك وأريتك بترك الهمزة وهو الأكثر، وتترك التاء مفتوحة للواحد والواحدة والمثنى والجمع مذكرا ومؤنثاً معتمدة في خطاب ما ذكر على تصريف الكاف ولا موضع لها من الإعراب. العدوّ: يطلق على الواحد والجمع. حضَّر: جمع حاضر، هنا عليك: هان عليك أمرنا.

وقيت: دعاء له بالوقاية والحفظ.

(٦) سرت بك: جاءت بك ليلاً.

٣٣ ـ فقالَتْ وقدْ لانَتْ وأفْرَخَ رَوْعُها ... كَلاكَ بحفْظٍ رَبُّكَ المتَكَبِّرُ(١)

٣٤ ـ فأنتَ أبا الخطّابِ غيرَ مُدافَعٍ ... عَلَيَّ أميرٌ ما مَكَثْتَ مُؤَمَّرُ(٢)

٣٥ ـ فَبِتُّ قريرَ العينِ أُعْطيتُ حاجَتي ... أُقَبِّلُ فاها في الخَلاءِ فأُكْثِرُ(٣)

٣٦ ـ فيا لكَ من لَيْلٍ تَقَاصرَ طولُهُ ... وما كان لَيْلي قَبْلَ ذلِكَ يَقصرُ(٤)

٣٧ ـ ويا لكَ من مَلْهى هُناكَ وَمَجْلِسٍ ... لنا لم يُكَدِّرْهُ عَلَيْنا مُكَدِّرُ

طول الليل: كناية عن الهم، يكدّر: ينغص، قصر الليل: كناية عن الراحة والإطمئنان

٣٨ ـ يُمجُّ ذكيَّ المِسْكِ مِنها مُقَبَّلٌ ... نقيُّ الثنايا ذو غُروبٍ مُؤَشَّرُ(٥)

٣٩ ـ تراهُ إذا ما افْتَّر عنهُ كأنَّهُ ... حَصى بَرَدٍ أو أقْحُوانٌ مُنَوَّرُ(٦)

٤٠ ـ وتَرْنو بعَيْنَيْها إليَّ كما رنا ... إلى ظَبْيَةٍ وسْطَ الخميلةِ جُؤذَرُ(٧)

٤١ ـ فَلَمّا تقضّى الليلُ إلا أقلَّهُ ... وكادتْ توالي نَجْمِهِ تتغَوَّرُ(٨)

٤٢ ـ أشارَتْ بِأَنَّ الحيَّ قَدْ حانَ مِنهُمُ ... هبوبٌ، ولكنْ مَوعِدٌ منكَ عَزْوَرُ(٩)

---

(١) أفرخ روعها: دهب فزعها. كلاك: أصله كلأك: حفظك. ويروى: كلانا.

(٢) ابو الخطاب هو عمر بن ربيعة، ما مكثت: ما حييت أو ما بقيت في بيتي، غير مدافع: غير منازع لك أحد في حبي.

(٣) قرير العين: هادىء البال مطمئن النفس.

(٤) صدر البيت (٣٦) مأحوذ من قول أمرءى القيس ـ فيا لك من ليل كأن نجومه . . .

(٥) المقبل: الفم. الثنايا: جمع ثنية، الأسنان في مقدم الفم ذو غروب: غني الأسنان، وغَربُ كل شيء حدّه. مؤشر: من التأشير وهو تحزيز الأسنان ويكون خلقة وصناعة، وهذا كناية عن صغرها والنعيم الذي تعيش فيه.

(٦) افتّر عن: أى إذا ضحكت فبدا فمها. البرد: حب الغمام الذي ينزل مع المطر. الأقحوان: نبت طيب الرائحة حواليه ورق أبيض وأصفر يشبه به الثغر. منوّر: يظهر نَوْره أي زهره، افتر: أي انكشف عنه: أي عن فمها، كأنه: أي كأن الأسنان فيه، حصى برد: حب الثلج المتجمد وهو كناية عن بياض أسنانها.

(٧) ترنو: تديم النظر مع سكون الطرف. الجؤذر. «بضم الدال وفتحها»: ولد البقرة الوحشية. الخميلة: كل موضع كثر فيه الشجر.

(٨) التوالي: التوابع. تتغور: تغور فتذهب، وهو مأخوذ من الغور، أقله: القليل منه.

(٩) هبوب: انتباه، من قولهم هبَّ من نومه: انتبه. عزور: هو ثَنِيَّة الجُحفة بها طريق المدينة إلى مكة، وتروي موعد لك جديد.

٤٣ ـ فما راعني إلا مُنادٍ: ترحَّلوا وقد لاح مَعْروفٌ من الصُّبحِ أشقَرُ (١)
٤٤ ـ فلماّ رأتْ مَنْ قَدْ تَنَبَّـهَ منهُمُ وأيقاظَهُـمْ قالَـتْ: أشِرْكيفَ تأمُرُ(٢)
٤٥ ـ فَقُلْـتُ أُباديهـمْ فإمـا أفوتُهُمْ وإمَّـا يَنـالُ السَّيْفُ ثَأْراً فَيثْأَرُ(٣)
٤٦ ـ فقالـتْ أتحقيقـاً لِما قالَ كاشِحٌ علينـا، وتصديقـاً لِما كان يُؤْثِرُ(٤)
٤٧ ـ فـإن كان ما لا بُدَّ منـهُ فغيْرُهُ مِنَ الأمْـرِ أدنـى للخَفـاءِ وأسْتَرُ:
٤٨ ـ أقصُّ على أختَـيَّ بدْءَ حديثِنا ومـاليَ مِن أن تَعْلَما مُتَأخَّرُ(٥)
٤٩ ـ لعلَّهُما أن تَطْلُبـا لكَ مَخْرَجاً وأن تَرْحُبا سِرْباً بِما كُنْـتُ أحْصَرُ(٦)
٥٠ ـ فقامتْ كئيباً ليْسَ في وجْهِها دَمٌ مِن الحُـزْنِ تُذْري عَبْـرَةً تتحدَّرُ(٧)
٥١ ـ فقامـت إليهـا حُرَّتـانِ عليهِما كِسـاءانِ مِن خَزٍّ دِمَقْسٌ وأخضرُ(٨)
٥٢ ـ فقالت لأُختيْها: أعينـا علي فتىً أتـى زائـراً، والأمْـرُ للأمْـرِ يُقْدَرُ(٩)
٥٣ ـ فأقْبلتـا فارْتاعَتـا ثمَّ قالتا: أقِلِّي عليكِ اللـومَ، فالخطـبُ أيسرُ(١٠)
٥٤ ـ فقالتْ لها الصغرى سأعطيه مُطْرَفي وَدِرعي وهـذا البُرْدَ إن كان يَحْذَرُ(١١)

---

(١) راعني: أخافني، ترحلوا: قوموا إلى رحالكم واستعدوا للسفر لاح معروف من الصبح: ظهر بشكله المعروف، أشقر: مائل للإحمرار.
(٢) أيقاظ: جمع يَقِظ بمعنى يقظان. تنبه، وفي رواية تنوّر. تلمّس النور.
(٣) أباديهم: أجاهرهم وأظهر لهم أو أهاجمهم، أفوتهم: أخلص وأنجو منهم.
(٤) أتحقيقا: اتفعل هذا تحقيقاً. الكاشح: الذى يضمر العداوة وهو العدو المبغض لنا. يؤثر: يفضّل ـ أى العدو ـ من أمر الفضيحة. أو يؤثر: يُروى ويتناقل عنا من تهم.
(٥) بدء حديثنا: أوله. متأخر: اسم مفعول بمعنى المصدر.
(٦) ترحبا: تتسعا. السرب: النفس والصدر، تقول فلان واسع السرب. واسع الصدر ضيق الغضب. أحصر: أضيق، من حصر «باب فرح».
(٧) تذري دمعة: تبكي، تتحدر: تتدحرج على حدها.
(٨) حرتان: عنى أختيها. الدمقس: الحرير وكذلك الخز.
(٩) تقدير الأمر: تدبير، والأمر للأمر يقدر (أريد منكما تدبيراً يوازي الأمر الذي وقعت فيه).
(١٠) ارتاعتا: خافتا، أقلي عليك اللوم: خففي من لوم نفسك، الخطب: الأمر، أيسر: أسهل مما تعتقدين.
(١١) المطرف «بضم الميم وكسرها» رداء من خز. الدرع: ثوب للمرأة أو القميص. البرد: ثوب مخطط.

٥٥ ـ يقـوم فيمشي بيننـا مُتنكراً فلاسِرُّنا يفشـو، ولا هو يظهرُ(١)
٥٦ ـ فكان مِجَنّي دون من كنتُ أتّقي ثلاثُ شخوصٍ : كاعبـان ومُعْصرُ(٢)
٥٧ ـ فلمّا أجَزْنا ساحة الحيِّ قُلْنَ لي : أمـا تتّقـي الأعـداءَ والليلُ مُقْمِرُ(٣)
٥٨ ـ وقلنَ : أهذا دأبُكَ الدَّهرَ سادِراً أمـا تستحـي أو ترعـوي أو تُفَكِّرُ(٤)
٥٩ ـ إذا جئتَ فامنحْ طَرْفَ عَينيكَ غيرنا لكي يحسبوا أنَّ الهـوى حيْثُ تَنْظُرُ
٦٠ ـ فآخِـرُ عهدٍ لي بها حيثُ أعْرضت ولاحَ لهـا خَدٌ نقـيٌ ومِحْجَرُ(٥)
٦١ ـ سوى أنني قدْ قلتُ يا نُعْمُ قولةً لهـا والعِتـاقُ الأرحَبيّات تُزْجَرُ(٦)
٦٢ ـ هنيئـاً لأهـلِ العامـرية نشرُها اللـذيذُ وريَّاهـا الـذي أتذكَّرُ(٧)
٦٣ ـ وقمـتُ إلى عنْسٍ تخـونَ نيَّها سرُى الليل حتـى لحمُهـا مُتَحَسِّرُ(٨)
٦٤ ـ وحبْسي على الحاجاتِ حتى كأنّها بقيةُ لوحٍ أو شِجـارٌ مؤسَّرُ(٩)
٦٥ ـ ومـاءٍ بمومـاةٍ قليلٌ أنيسُه بسابَس لم يَحْـدُثْ به الصيف مَحضَرُ(١٠)

---

(١) يفشو: ينتشر.

(٢) المجن: الترس. ثلاث شخوص: الوجه ثلاثة شخوص ، ولكنه لما قصد إلى النساء أنّث على المعنى ، وأبان ما أراد بقوله : كاعبان ومعُصر. الكاعب : الجارية التى كعب ثديها ونهد. المعصر: الجارية أول ما أدركت ، كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته . ومجنى ما يخيفني.

(٣) أجزنا: قطعنا المكان الذي يقيم فه الحي. الحي: القبيلة وصدر هذا البيت لأمرىء القيس من معلقته.

(٤) السادر: الذى لا يبالى ما يصنع. ترعوى: تكف. دأبك: عادتك وسيرتك.
الدهر: أى طول الدهر دائماً.

(٥) المَحْجر او المِحْجر: مشقّ جفن العين، والموصع الـذى يقع القنـاع عليه، ولاح: أي طهـر وانكشف.

(٦) العتاق الأرحبيات : خيار الإبل، أو النجائب من الطير. والزجر لها التيمن بسنوحها والتشاؤم ببروحها، الأرحبيات: سبـة إلى أرحب وهى قبيلة من همدان.

(٧) نشرها: عطرها ورائحتها، الريا: الرائحة الزكية.

(٨) العنس: الناقة القوية، تخون: نقّص، نيّها: شحمها، متحسّر: ساقط.

(٩) حبسى على الحاجات : قصرها على أعمالى وهذا معطوف على سرى الليل فى البيت السابق.
اللوح: هو لوح الخشب المعروف، الشجار: الهودج الصعير، مؤسر: مشدود.

(١٠) الموماة: الصحراء أو البادية التي لا أنيس فيها ومثلها البسابس ومفردها بسبس ـ بفتح الباء ـ ، محصر: أي حضور او نزول وحلول.

٦٦ - بـه مبتنـىً للعنكبـوت كأنهُ على طرف الأرجـاء خامٌ مُنَشَّرُ[١]
٦٧ - وردتُ وما أدري أما بعد موردي من الليل أم ما قد مضى منـهُ أكثرُ[٢]
٦٨ - فَقُمْتُ إلـى مِغْـلاةِ أرضٍ كأنها إذا التفتـت مجنونـةٌ حـين تنظُرُ[٣]
٦٩ - تنازعنـي حرصـاً على الماء رأسها ومـن دون ما تهـوى قَليبٌ مُعَوَّرُ[٤]
٧٠ - محاولـة للماء لولا زمامُها وجذبـي لهـا كادت مراراً تكسَّرُ[٥]
٧١ - فلما رأيت المضرَّ منهـا وأنني ببلـدة أرض ليس فيهـا مُعَصَّرُ[٦]
٧٢ - قصرتُ لها من جانب الحوض مِنْشَأً جديداً كقـابِ الشِّبـر أو هو أصغرُ[٧]
٧٣ - إذا شرَعـتْ فَلَيْس للتقى مشافرهـا منـه قدى الـكفً مُسْأَرُ[٨]
٧٤ - ولا دلـو إلا القعـبُ كان رشاءَهُ إلى الماءِ نسـعٌ والأديمُ المضَفَّرُ[٩]
٧٥ - فسافتْ وما عافتْ وما ردَّ شُرْبَها عن الـريِّ مطـروق من الماء أكدرُ[١٠]

(١) الخام: الجلد الخام، الإرجاء: الإنحاء وهى الفلاة الواسعة.
منشر: منتشر واسع أومنشور، به: أى بالماء فى البيت السابق.
(٢) وردت: نزلت هذا الماء ليلا.
(٣) المغلاة: الناقة السريعة في سيرها فكأنها تنهب الأرض نهبا.
(٤) تنازعنى: تقاومنى وتشد رأسها بقوة، القليب: البئر، معور أو مغور: ما فسد ماؤه وغـار أى ذهب.
(٥) زمامها: هو - العنان أي الرسن للدابة -، تكسَّر: أي تتكسر.
(٦) الضُر: هو الصرر والأذى، ليس فيها معصَّر لا ملجأ فيها ولا منجي.
(٧) قصرت لها: أرخيت لها الرسن قليلاً، كقاب الشبر: قدر الشبر.
(٨) المشافر: شفاه الأبل، قدى الكف: أى قدر الكف.
مسأر: فصلة الماء المتبقية.
(٩) القعب: إناء للشرب، الرشاء: الحبل، النسع: الحبل من الجلـد، والأديم: هو الجلـد، المضفر: المجدول (وصف للحبل الجلدى الذي ربط به الدلو).
(١٠) سافت: شمَّت الماء، عافت: كرهت ورود الماء، الرى: الإرتواء من الماء، المطروق من الماء: هو الذي وردته الإبل كثيرا فعكرت صفوه، أكدر: متغير اللـون بنتيجـة عدم صفائـه ونظافته.

عمر بن أبي ربيعة
(٢٣ - ٩٣ هـ/ ٦٤٤ - ٧١١ م)

اسمه ونسبه :

هو عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة بن حذيفة ابن المغيرة المخزومي القرشي، يكنى بأبي الخطاب وأبي حفص، يمني الأم(١) قرشي الأب مدني المولد، مكي النشأة(٢) ولذلك قيل «غزل يماني ودل حجازي».

كان اسم أبيه في الجاهلية «بجيرا» فسماه الرسول ﷺ، «عبدالله».

كانت أسرته واسعة الثراء في الجاهلية والإسلام، فهشام بن المغيرة كان يلقب في الجاهلية بـ (رب قريش) وأخوه الوليد كان سيداً من سادات مكة وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾.

أما أخوهما الثالث وهو أبو ربيعة جد شاعرنا فقد كان فارساً شجاعاً يلقب بـ (ذي الرمحين) لطوله أو لأنه كان لا يقاتل إلا برمحين ولا يسير إلا بهما، وقد كان عبدالله والد عمر من التجار الموسرين في الجاهلية والإسلام وكان له متجر كبير في اليمن كما كانت تلقبه قريش بـ (العدل) لأنه كان عدل قريش أي كفؤها فهو يكسو الكعبة سنة وقريش تكسوها سنة أخرى.

---

(١) أمه هى سبية من سبايا اليمن أو حصر موت تسمى محدا.

(٢) ولذلك نرى عمراً يتشوق إليها ويعتز بها قائلاً:

وأنا امرؤ بقرار مكة مسكني ... ولها هواى فقد سبت قلبى

كما يروى عنه أنه أقرض الرسول ﷺ بضعة عشر ألفاً من الدنانير لتجهيز غزوة حنين، فقد كان له عبيد من الأحباش كثير وقد عرض على النبي (ﷺ) أن يستعين بهم في غزوة حنين ولكن الرسول رفض ذلك قائلاً «لا خير في الحبش، إن جاعوا سرقوا، وإن شبعوا زنوا، وإن فيهم لخلتين جميلتين: إطعام الطعام، والبأس يوم البأس».

كما يروى عن عبدالله هذا أنه ولي للرسول (ﷺ) ولاية «الجند» في اليمن ولم يزل بها والياً حتى وفاته سنة ٣٥ هـ وولده عمر لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.

وكانت جدة عمر لأبيه عطارة يحمل إليها العطر من اليمن وقد انعكس ذلك على عمر الذي كان يكثر من التزين والتطيب.

أما بالنسبة لمولد عمر فأرجح الآراء أنه ولد بالمدينة سنة ٢٣ هـ ليلة مقتل الخليفة عمر الفاروق فتسمى باسمه وتكنى بكنيته تيمناً وتفاؤلاً غير أنه عندما كبر سلك طريق الغزل والمجون فقال الناس فيه وفي مولده «أي حق رفع وأي باطل وضع».

فقد حققت قريش مع عمر الفاروق ذروة مجدها السياسي وحققت مع ابن أبي ربيعة ذروة مجدها... الفني، حيث ورد في الأغاني قول ابن إسحق وكانت العرب تقر لقريش بالتقدم عليها في كل شيء إلا في الشعر فإنها كانت لا تقر لها به حتى كان هذا الشاعر يعنون عمر فأقرت لها الشعراء أيضاً ولم تنازعها شيئاً.

وقد عاش عمر على الأرجح سبعين سنة أي أنه توفي سنة ٩٣ هـ في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) وقد تعددت الآراء في وفاته واختلفت فبعضها يذهب إلى أن سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩ هـ) نفاه إلى الطائف وأخرى تزعم أن عبد العزيز قد نفاه إلى جزيرة دهلك بالبحر الأحمر على مقربة من اليمن، وبعضها يزعم أن عمر غزا في البحر واحترقت سفينته فاحترق، ورواية أخرى تزعم أنه حج وتغزل بسيدة فدعت عليه فمات والظاهر أن كل هذه الروايات لا تقوم على أساس سليم ولا يطمئن إليها البصير.

بيئته «الحجاز» :

على أية حال توفي والد عمر وهو لا زال في الثانية عشرة من عمره فتعهدته أمه بالتربية والرعاية وبالغت في هيئته وزينته وعطره وقد ترافقت هذه التربية المدللة للشاعر وخلقته الجميلة مع مجتمع مكة المتطور والمتحضر وما يشيع فيه من الغناء والموسيقى واللهو بفعل العناصر الأجنبية التي دخلت إليه نتيجة الفتوح وكثرة الجواري الفارسية والرومية على حد سواء الأمر الذي أوجد بالضرورة طبقة من اللاهين المترفين الذين لا عمل لهم فثراؤهم كبير وخدمهم كثر وليس أمامهم إلا قضاء أوقات الفراغ في الغناء والطرب ونتيجة لذلك ساد المجتمع المكي ضروباً من الحرية في حياة الرجل والمرأة وأحاديث الغزل والصبابة ، والقصص الغزلية والمغامرات العاطفية وبذلك تحولت مكة إلى أشبه ما يكون بالمسرح الكبير فالمغنون والمغنيات لا يزالون يضربون في الصباح والمساء ومن حولهم طبقة الفتية ممن لا عمل لهم خاصة وقد انتهت الفتوح ، كما كانت مجالس اللهو والغناء تتنقل من بيوت المكيين إلى ضواحي مكة ومتنزهاتها .

في مثل هذا الجو المترف اللاهي وهذا المجتمع المتحضر المستقر نشأ عمر ابن أبي ربيعة فتى قريش المدلل والأسرة الثرية الأرستقراطية . وبالقدر الذي اضطربت فيه الروايات في تحديد وفاته اضطربت أيضاً في ذكر أخبار حياته إذ أنه اصبح الشخصية المكية التي نسجت حولها الكثير من القصص الغرامية ، والمغامرات العاطفية ، وأياً كانت هذه الأخبار فإن الثابت هو أن المرأة المكية قد نالت قسطاً وافراً من الحرية لم تنلها المرأة العربية من قبل بحيث اصبحنا نجد فتاة كالثريا بنت علي بن عبد شمس ذات الحسب والنسب في مكة تعجب بهذا الفن الجديد الذي أخذ يسود مكة وهو فن الغناء ما يجعلها تتصل بعمر لإعجابها بشعره الذي شاع وانتشر مع ألسنة المغنيين والمغنيات في مكة والمدينة ، وعلى نحو ما فعلت الثريا ، فعلت زينب الجمحية من أهل المدينة وقد اعجبت بشعر عمر فتقربت إليه وأغلب الظن أنه تزوجها وذكرها في العديد من أشعاره فتارة يرمز إليها باسم هند وأخرى باسم نعم وثالثة باسم ذات الخال وذلك وفق رغبتها هي. والواقع

أن المجتمع الحجازي قد انقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية طبقة ارستقراطية وتمثلها قريش وأتباعها في الحجاز والشام، وطبقة عامة من العرب تمثل الطبقة الوسطى، ثم الطبقة الثالثة وهي طبقة المولدين فالطبقة المترفة «قريش» عاشت على الغناء والموسيقى وتطور فيها فن الغزل الذي كان يعنيه مواليهم وخدمهم وجواريهم وقوامه الرقة والسهولة في الألفاظ والمعاني والخفة في البحور الشعرية والتقصير والتجزئة في التفعيلات وفي هذه الطبقة شب عمر بن أبي ربيعة فصاغ لنا ديواناً كله مقطوعات شعرية نظمها للمغنين والمغنيات أما الطبقة العامة فازدهر الهجاء بين صفوفها بينما ازدهرت الشعوبية في الطبقة الثالثة.

عمر وفن الغزل

لقد توفرت لعمر جميع الأسباب التي أهلته ليكون زعيم الغزليين الحضريين في هذا العصر دون منازع، وإليك إيجازاً لهذه الأسباب والعوامل: -

١ - هيئته وخلقته: -

فقد كان كما سبق وقلنا، جميلاً ناعماً ورقيقاً، فقد وصف بين فتيان بني مخزوم بأنه كان أفرعهم طولاً، وأجهرهم جمالاً، وأبهرهم شارة وعارضة وبياناً، وقد توفرت لهذا الجمال مظاهر الجاه والترف في أسرته القرشية المخزومية الأرستقراطية وفي الجواري والعطور وفي الغناء والموسيقى وفيما هو أهم من ذلك ألا وهو الفراغ الذي يدفع بالنفس للإقبال على كل تلك المظاهر إقبالاً دون أن تلوي على شيء.

٢ - تربيته وحياته الخاصة: -

فقد كان عمر وحيد أمه وأبيه، هذا بالإضافة إلى أن أمه قد تكفلت بتربيته بعيداً عن أبيه في اليمن ولذلك كانت تصحبه إلى مجالس النساء، هذا بالإضافة إلى أن أباه قد توفي وهو لا زال فتى يافعاً حدث السن، ولذلك نشأ عمر هذه النشأة النسوية الخالصة المغمورة بالترف والنعيم والعطور والموسيقى والغناء فكان أمام الغزليين وأكثرهم معرفة بأحاديث النساء وأساليبهن ووصف مشاعرهن.

٣ ـ أسرته وما لها من جاه وثراء ونفوذ : ـ

وهذا ما جعل عمر مترفاً لاهياً منذ صغره ، فكثرة المال والثراء جعلت منه إنساناً بعيداً عن الجد متفرغاً للغزل واللهو والموسيقى . وقد أفاده هذا الثراء كثيراً حيث يروى أنه منح سريج ثلاثمائة دينار نظير تلحين قطعة أخرى من شعره وعلى هذا النحو اعطى جميلة عشرة آلاف درهم ، والدلال مائة دينار وهذا ما جعل شعره شائعاً ذائعاً بين المغنيين والمغنيات وفي المجالس والمنتزهات في مكة والمدينة على حد سواء .

٤ ـ بيئته العامة (الحجاز) : ـ

فقد زخرت مكة بالكثير من المغنيين والمغنيات والجواري الفارسيات والروميات وهذا ما دفع بالكثير من الشباب المكي الأرستقراطي إلى مجالس الغناء والطرب . وعليه فقد كانت الصفة العامة للمجتمع الحجازي هي الانصراف إلى حياة الترف واللهو وإغداقهم بالهبات والاعطيات والأموال من قبل بني أمية لصرفهم عن أن يجادلوا في السياسة أو يشاركوا فيها ، الأمر الذي وفر للمجتمع الحجازي مختلف عناصر الترف إلى جانب توفر الجواري والقيان من بلاد فارس والروم هذا بالإضافة إلى أن النفس الحجازية قد فطرت على حب الغناء والغزل وعليه فقد كان عند الحجازيين الاستعداد والرغبة مع المقدرة المادية ولذلك كانت الحجاز مصدر حركة الغناء التي امتدت إلى الشام والعراق .

لهذه الأسباب مجتمعة كان عمر بن أبي ربيعة في غزله صاحب مذهب جديد ومدرسة حديثة تقوم على مجموعة من الأسس أهمها : ـ

١ ـ **موضوع الغزل** : فهو أساس واضح ومعلم بارز في غزل عمر فالمرأة الثرية المتحضرة ذات الحسب والجاه التي نالت قسطاً وافراً من الحرية هي موضوع غزله لا غير فهي امرأة منعمة ومترفة .

وأكثر النساء التي تغزل بهن عمر كن من نساء الطبقة الراقية من قريش والحجاز ولذلك تردد في شعره أسماء من مثل (سكينة بنت الحسين ، وفاطمة

بنت عبد الملك بن مروان، ولبابة بنت عبدالله بن عباس، وعائشة بنت طلحة، وهند بنت الحارث، وأم محمد بنت مروان بن الحكم) ولذلك قال فيه العقاد: (لا نعرف من أخباره ـ يعني أخبار عمر ـ خبراً واحداً شبب فيه بفتاة من غير ذوات الشارات والأحساب) هذا بالإضافة إلى أن ذلك قد اكسب عمراً وشعره وحدة موضوعية في جميع أشعاره الغزلية فالقصيدة عنده ذات موضوع واحد لا يتعدد بحيث يقصره على الغزل والمغامرات العاطفية التي كان يقوم بها.

٢ ـ اعتماد شعره الغزلي على الغناء اعتماداً رئيسياً وكأن شاعرنا لم يقل شعراً إلا ليغني فقد كان يؤلف مع الغريض وابن سريج جوقة موسيقية وفرقة غنائية متنقلة بين أنحاء مكة والمدينة مما جعل الجميع يعجب بشعره أيما إعجاب فقد رأينا سابقاً كيف كانت النساء تطلبه ليحادثن ويجالسن ويقول فيهن الشعر أو يسمعهن إياه، كما رأينا أنه كان يجزل العطاء للملحنين والمغنيين لشعره، ومما زاد من سرعة انتشار شعره وذيوعه وتناقله بين العامة والخاصة هو تلك الأوزان السهلة الخفيفة التي كان يؤلف عليها شعره لتلائم الغناء من مثل أوزان البحر السريع والخفيف والوافر والمتقارب فهذه الأوزان لا تحتاج إلى مجهود كبير في الغناء كما أن بإمكان الشاعر أو المغني أن يحملها من الألحان والايقاعات ما يفي بالحاجة ويرضي أذواق الجميع. كما أن عمر كثيراً ما كان يلجأ إلى تقصير الأوزان باستعماله مجزوءات البحور الشعرية، ومما زاد في شيوع شعره أيضاً هو توخيه للغة السهلة البسيطة القريبة من الذوق العام وكأننا أمام غناء شعبي ولذلك كان لفظه ومعناه سهلاً بسيطاً مفهوماً للجميع كما أن عمر حرص على أن يكون أسلوبه الشعري سهلاً بعيداً عن التعقيد قريباً من الناس أقرب إلى لغة الناس اليومية.

٣ ـ الصورة العامة في غزله أنه معشوق لا عاشق، ومطلوب لا طالب وهذا نهج لم نألفه في الشعر العربي من قبل، فقد انعكست العاطفة عنده وشذت شذوذاً كبيراً، فالنساء يلاحقنه ويطلبنه ويتغزلن به، بل ويغمزنه انظر

إليه يقول على لسان إحدى النسوة :

قومي تصدى له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تسعى على أثري

واسمعه أيضاً يقول على لسان إحداهن :

اشيري بالسلام له إذا هو نحونا خطرا

فالنساء في شعره متيمات به ، يتابعنه بالسلام ويلاحقنه بالتحية مرة وبالغمز مرة أخرى وهو متمنع عليهن هارب منهن ، يصدهن مرات ومرات ويهجرهن دون سبب فهو يتمنع عليهن كما تتمنع الفتاة على حبيبها وهكذا نجد أن صورة العشق في غزله معكوسة تماماً وهذا كما نعلم جديد كل الجدة في اللغة العربية . فهو يطلب من صاحبته ألا تبوح باسمه خوف ملاحقة النساء له :

ألم تعلمي ما كنت آليت فيكم واقسمت لا تحكين ذاكرة باسمي

ورغم هذا الشذوذ العاطفي الذي نلحظه في غزل عمر إلا أنه استطاع أن ينفذ إلى تصوير مجتمعه الجديد تصويراً دقيقاً ومعبراً فقد كشف لنا عن المحركات النفسية للمجتمع العربي في مكة والمدينة وما أصابه من تبدل وتحول نتيجة الحضارة الجديد إذ أنه استطاع بواسطة حواره المفتوح في غزله أن يعرفنا إلى ما وصلت إليه المرأة العربية وما نالته من حرية وحظوظ كبيرة .

فغزله يشكل صورة لمجتمعه يعبر عن التحول الذي طرأ على النفسية العربية في مكة والمدينة .

٤ ـ طابع الحوار والقصص الذي يغلب على غزله ولعل ذلك جاءه من طبيعة تلك الحياة وما فيها من حرية ومجالس لهو وغناء في مكة وخارجها وما يشيع بين هذه المجالس من مغامرات عاطفية وقصص غرامية بين المحبين كما ساعد على ذلك خياله الخصب ومعرفته الواسعة والعميقة بأحاديث النساء وتفكيرهن ومشاعرهن بحيث نراه يتكلم بلسان غيره من الفتيات والنساء دون

أن تشعر بذلك. فهو يعبر عن المرأة التي عاصرته وما يدور بينها وبين صويحباتها من حوار وأحاديث خاصة.

انظر إليه في الرائية الشهيرة كيف يجري الحوار بين نعم وأخواتها وبين نعم وأسماء دون أن تشك ولو للحظة أن المتحدث هو رجل بل يخيل إليك أن المتحدث هي امرأة عالمة بأسرار النساء ومكائدهن.

٥ ـ التخصص في الغزل والانقطاع والتفرغ له بل واحترافه وهو ما يسمى بوحدة الغرض والقصيدة عند عمر فصاحب الأغاني ينقل لنا ما وصف الشعراء به عمر بن أبي ربيعة مثل قول نصيب الشاعر فيه: «عمر بن أبي ربيعة أوصفنا لربات الحجال». .

وحماد الراوية يقول في شعره بعد سماعه: «ذلك الفستق المقشر».

وقيل فيه أيضاً: «أنسب الناس» وهو تارة «أغزل الناس».

كما أن عمر نفسه قد رد على سليمان بن عبد الملك عندما سأله: ما يمنعك من مدحنا؟؟ رد عمر قائلاً: «إنى لا أمدح الرجال وإنما أمدح النساء».

وقد كان عمر يستغل من أجل ذلك مواسم الحج وتوافد الناس على مكة والحجاز من أطراف الدولة والعراق واليمن والشام حيث يروي أبو الفرج في أغانيه أن عمر كان يأتي أيام الحج فيعتمر ويلبس الحلل والوشي ويركب النجائب المخضوبة بالحناء ويلقى العراقيات... ويلقى المدنيات... ويلقى الشاميات ولذلك كان يتمنى أن تكون أيام السنة كلها حجاً واعتماراً.

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا   كل يومين حجة واعتماراً

ولذلك أورثنا عمر بن أبي ربيعة ديواناً ضخماً كله في الغزل وليس ذلك مما نعرفه من قبل، ولعل ذلك يعود إلى أن العقلية العربية قد تطورت في هذا العصر إلى حد كبير واصبحت عقلية تخصص، فالشاعر يأخذ فناً واحداً يخلص له ويعيش معه ويتعمق فيه.

ومجمل القول أن غزل عمر قد صيغ من مادة معاصرة من حيث النفسية: حيث الشاعر يحلل نفسه وعواطفه آزاء المرأة ولم يقتصر على وصفها الحسي كما كان الأمر من قبل أو من حيث المرأة: التي يبرز عواطفها ويحلل خواطرها ومشاعرها أو من حيث الأوزان: المناسبة للغناء في مجزوءات وبحور سهلة خفيفة أو من حيث اللغة: فهي لغة قريبة مألوفة وشائعة بين الناس يفهمها العام والخاص على حد سواء.

ولذلك تهافتت عليه ربات الحجال وربات القصور الأموية يطلبن مشاهدته ولقاءه ليظهرن في شعره وغنائه فكن إذا حججن تمنين لقاءه في مكة فالناس يحجون وعمر يجمع الذنوب ولذلك نراه يقول:

يقصد الناس للطواف احتساباً وذنوبي مجموعة في الطواف

وقد اختلفت الروايات في مدى ترفه ولهوه وممارسته له فعلاً فمن الروايات ما يؤكد أنه ما آتى شيئاً قط مما تحدث به، ورأي آخر يعكس قصائده وقائع وأحداثاً ومغامرات قام بها وكلا الرأيين مبالغ فيه متطرف في حكمه، وأياً كان لرأي فمن الثابت أن عمر كان في شبابه هذا الشاب اللاهي والمترف ثم تحول مع الزمن إلى هذا الكهل الذي يتنسم عبق ذكريات شبابه ثم نراه في مرحلة ثالثة ناسكاً مبتعداً عن كل ما يتصل بالغزل قولاً أو نشيداً ولذلك قال صاحب الأغاني «عاش عمر ثمانين سنة، فتك منها أربعين سنة، ونسك أربعين سنة».

الأفكار الرئيسية

الفكرة الأولى :

من البيت ١ ـ ١٨ (أمن آل نعم . . . ووال كفاها كل شيء . . .)
يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن حبه واشتياقه للقاء نعم وما يعانيه في هذا السبيل ، وما يعترض هذا الحب وخاصة موقف أهلها وأقاربها منه .

الفكرة الثانية : ـ

من البيت ١٩ ـ ٦٢ (وليلة ذي دوران . . . هنيئاً لأهل العامرية . . .)
يضمن هذه الأبيات حديثه عن مغامرته العاطفية التي قام بها في موضع «ذي دوران» للقاء نعم والوصول إليها ثم بدأ يسرد الأحداث «كيف وصل إليها ومتى؟ وكيف خرج من ديارها وكيف؟؟» .

الفكرة الثالثة : ـ

من البيت ٦٣ ـ ٧٥ (فقمت إلى عنس . . . فسافت وما عافت . . .)
يتناول فيها وصف رحلة العودة على ناقته في تلك الصحراء الموحشة المقفرة .

الدراسة الأدبية

١ ـ غاد: سائر في الصباح، مبكر: من التبكير، غاد فمبكر: سائر في الغداة أي الصباح الباكر، الرائح: المسافر في المساء، المهجر: من التهجير وهو السير في وقت الهاجرة (عند الظهيرة وهو زمن اشتداد الحر) رائح فمهجر: مسافر في الأصيل والشمس لا تزال ترسل حرها.

الشرح: يسائل الشاعر نفسه قائلاً هل أنت متوجه إلى حي آل نعم في الصباح الباكر من يوم غد، أم في وقت الأصيل والشمس لا تزال ترسل حرها فهذه الأوقات لا تجوز فيها الزيارة.

٢ ـ لحاجة نفسي: أي لسبب ما في نفسك، لم تقل في جوابها: إنك كتمتها عن كل من يسأل عنها، فتبلغ عذراً: فتوجد لنفسك العذر أو المبرر، المقالة: القول، تعذر: تقيم العذر.

الشرح: إن الشاعر لم يتحدث لأحد عما دعاه إلى الذهاب، ولو أنه تحدث لأقام العذر لنفسه أي هل هناك حاجة ماسة لهذه الزيارة في مثل هذه الأوقات فإن كان هناك حاجة ماسة ومطلب ضروري فهو الذي يقدم لك العذر لهذه الزيارة.

٣ ـ أهيم: أشغف حبابها، مقصر: اسم فاعل من أقصر أي كف عن دواعي الصبابه، يقول: أنني أشغف حبا بنعم التي لم يجمع شملي بها ولا يتسنى لي الاتصال بها، ولا يكف القلب عن التعلق بها والخفقان بحبها فهذه هي الحاجة الماسة والملحة التي تدفعني لزيارتها في مثل هذه الأوقات الممنوعة.

٤ ـ دنت : قربت ، النأي : البعد ، يسلي : ينسي ، يقول : إن قرب نعم منك لا يجديك نفعاً لتعذر اتصالك بها ، كما أن بعدها لا ينسيك حبها ، وفضلاً عن ذلك فإنك لا تستطيع الصبر على فراقها فأنت لا تقصر في الحديث عنها فلسانك يلهج دائماً بذكرها وقلبك متعلق بها .

٥ ـ يقول أن امرأة جميلة مثل هذه كان يجب أن تنسيك نعم التي تغامر من أجلها بحياتك ومكانتك للوصول إليها فالشاعر هنا يظهر وكأنه متمسك بنعم رغم ما يكلفه ذلك من تضحيات .

٦ ـ يتنمر : يتشبه بالنمر في شراسته ، أي يعبس وجهه ويكلح .

يقول : عندما آتي ديار نعم زائراً فإنني أجد ابن عم لها لي بالمرصاد ، ويقابلني بوجه عابس كالح كوجه النمر المفترس وهذا ما جعل قربي منها ليس بنافع .

٧ ـ عزيز عليه : صعب عليه ، ألم ببيتها : أنزل فيه ، يسر : يضمر ، الشحناء : البغضاء ، البغض : الكره .

يقول : يصعب على ابن عم نعم هذا أن يراني أقوم بزيارة نعم ، فهو يضمر لي العداوة ، ويظهر الكره ولذلك أصبح القرب منها لا فائدة منه فالجميع يناصبونني العداء ويتربصون بي .

٨ ـ ألكني إليها بالسلام : أي كن رسولي إليها بالسلام ، يشهر : يذاع ، ينشر ، المامي : زيارتي ، ينكر : يقبح ، يظهره ، وكأنه شيء منكر .

يخاطب الشاعر صاحباً متخيلاً على عادة شعراء العرب قائلاً له : كن رسولي إلى نعم بالسلام ، نظراً لأن زيارتي لها قد تستغل للتشهير بي وفضح أمري ، وإظهاري بمظهر من فعل فعلاً منكراً من جانب ابن عمها المشار إليه وهنا يكشف لنا الشاعر عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية في المجتمع الحجازي وما كان يعرف به من عادة التراسل بين المحبين .

٩ ـ الآية : العلامة ، مدفع أكنان : اسم موضع ، المشهر : الذي اشتهر

أمره بين الناس، يقول: لقد طلبت من رسولي إلى نعم أن يذكر أمامها كلمة (المشهر) التي كانت قد نعتتني بها يوم التقيت بها في مدفع أكنان، كدليل وبرهان على أنه موفد من قبلي لكي تطمئن إليه وتثق به ويشير الشاعر هنا إلى أنه كان قد التقى بها وله مغامرات عاطفية قبل هذا اللقاء الجديد بينهما.

١٠ ـ المغيري: المنسوب إلى المغيرة، وهو جده كما هو معروف.

يطلب الشاعر من رسوله أن يذكر نعم عندما استوقفت أختها أسماء لتسألها عما إذا كانت تعرف عمر الذي طالما ذكر أمامها. (كان ذلك عندما التقى بهما عمر في مدفع أكنان) يكشفا لنا هنا عن طبيعته النسوية ومعرفته بحيل النساء ومكائدهن فنعم تخرج للقائه مع أسماء للتمويه.

١١ ـ أطريت: من الأطراء وهو المديح، نعتاً وصفاً.

أهذا هو عمر الذي أكثرت من الإشادة بـه إلى الحد الذي جعلني لا أنساه ما دمت على قيد الحياة والشاعر هنا يظهر اعتزازه بنفسه ويمدح نفسه على لسان أسماء وكأن النساء يتحدثن عنه دائماً ويطلبنه.

١٢ ـ سرى الليل: السير فيه، النص: السير الشديد، التهجر: السير في وقت الهاجرة. يريد أن ما غير لونه، كثرة سيره في الليل ووقت الهاجرة، أي أنه لا يستقر في مكان محدد لأنه دائم السفر والتفكير للوصول إلى ديار نعم.

١٣ ـ تقول أسماء: إذا كان هذا هو عمر حقاً فإنه قد تغير عما كُنّا قد رأيناه من الشبيبة والصبا إلى الشيب والشيخوخة، وهذا ليس غريباً لأن التغير من طبيعة الإنسان.

حال: تغير، عن العهد: عن الصورة التي عرفناه عليها.

١٤ ـ يقول الشاعر لقد رأت أسماء ونعم رجلاً متغير الحال من كثرة السهر والسفر فهو إذا جاء وقت الضحى نام قليلاً ثم يعاود نشاطه وسفره قاصداً ديار نعم باحثاً عنها عله يحظى بلقائها وإذا ما أقبل الليل فإنه ليصاب بالبرد

لسكونه وتفكيره الطويل فهو لا يرتاح لا في ليله ولا في نهاره .

١٥ ـ فهو دائم السفر يجوب البلدان ويقطع الفيافي والقفار على ظهر ناقته ولذلك أصبح حاله يرثى له فهو أشعث الشعر ووجهه قد أغبر وتغير لونه من كثرة السفر والتجوال وشدة التعب والمشقة .

١٦ ـ فهو مسافر على ناقته ليل نهار لا يدفع عنه حر الشمس اللافح إلا ذاك الثوب الحريري الذي يرتديه فهو نحيل الجسم ، ضعيف البنية نتيجة سفره وتنقله وهيامه على وجهه في الصحراء اللاهبة .

١٧ ـ ١٨ ـ ريان : كثير المياه (بستان أو نحوه) يقارن الشاعر في هذين البيتين بين حاله وحال نعم فيذكر أنها تعيش في بيت بوسط بستان أخضر وارف الظلال وعندها من يقوم على خدمتها وتصريف شؤونها ولذلك لا حاجة لها بالسهر والتفكير والسفر وركوب الأخطار مثله هو.

١٩ ـ يذكر الشاعر المغامرة التي قام بها ليلة ذي دوران حيث تحمل مشاق السير في الليل معرضاً نفسه للهلاك ، ومن شيمة المحب أن يتكبد المشقات ويعرض نفسه للأهوال في سبيل من يحب فالمحب المغرر في عقله يتحمل الصعاب الكثيرة من أجل حبيبته .

٢٠ ـ على شفا : أي على طرف النهار ، أي أخره ، وربما يكون المقصود هنا الحذر الشديد ، رقيباً : مراقباً ، أحاذر : من الحذر .

يقول : لقد أمضيت ليلتي وأنا أراقب من يروح ويغدو بمنتهى الحذر حتى أشرفت على الهلاك من شدة اللهفة والخوف .

٢١ ـ يقول أن مجلسه هذا كان شاقاً وصعباً غير أن حاجته الملحة للقاء نعم هي التي تدفعه للإنتظار حتى ينام أهلها ليتمكن من الوصول إليها .

٢٢ ـ يقول بأن ناقته القوية الفتية قد باتت في الليل أيضاً وهي واضحة لكل طارق وظاهرة لكل سائر وكأنه تركها لأطعام الجياع ليلاً أو لينجو بها الخائف أو الهارب من عدوه (يقصد نفسه) .

٢٣ - أناجي النفس: أحدثها سراً، الخباء: أراد مكانها وأصله الخيمة، مصدر: مخرج، خلاص.

يقول: لقد أخذت أسأل نفسي عن موقع بيت محبوبتي، وكيف يتسنى لي التعرف إليه ووصولي إليه بسلام.

٢٤ - الريا: الرائحة الطيبة.

يقول: لقد أرشدني إلى خبائها شيئان هما رائحتها الطيبة التي أعرفها جيداً، وحبي لها الذي كدت أجهر به ويكشف لنا الشاعر هنا عن أن نعم كانت فتاة مترفة منعمة تستعمل أنواع العطور الجيدة.

٢٥ - ٢٦ - شبت: أشعلت، أنؤر: جمع نار، قمير: تصغير قمر، روح: رجع في المساء، روحوا: عادو إلى بيوتهم مساء، رعيان: جمع راع، نوم: نام والتشديد للمبالغة، السمر: القوم يسمرون، أي يجتمعون للحديث والسمر ليلاً، الحباب: الحية، شخصي: جسمي، قامتي خشية: خوف، خشية الحي: مخافة أهل الحي، أزور: مائل منحرف. (يعني مشيت بحذر شديد).

يقول لقد توجهت إلى خباء نعم بحذر شديد عندما سكن الصوت وأطفئت الأنوار وخمدت نيران أهل الحي، واختفى القمر الذي كنت أتمنى سرعة مغيبه، وعاد الرعيان إلى بيوتهم، واستغرق السمار في النوم، وشبه مشيته أثناء توجهه إلى خباء نعم بمشية الأفعى للدلالة، على شدة الحذر والحرص، وتعبيراً عن مدى خوفه من أهل الحي، فهو كان حريصاً على ألا يحس به أحد.

- ملاحظة: (البيت رقم (٢٦) يدل على أن المغامرة كانت في أوائل الشهر العربي).

٢٧ - تولهت: تكلفت الوله وأظهرته، الوله: الحزن وذهاب العقل، والتحير من شدة الخوف، مخفوض التحية: الذي يسر منها ولا يعلن، تجهر: ترفع صوتها بالتحية وتعلنها.

يقول: عندما فاجأتها بزيارتي لها في هذا الوقت المتأخر من الليل ارتاعت وأذهلتها المفاجأة حتى أنها كادت ترفع صوتها عالياً برد التحية بدلاً من ردها بصوت منخفض وذلك لشدة حيرتها وخوفها.

٢٨ ـ البنان: طرف الأصبع، ميسور أمرك أعسر: أي السهل من أمرك متعسر، فكيف بما فعلت؟

يقول: أنها عضت على طرف أصبعها وقالت: لقد تسببت في فضيحتي، فأنت تدرك بأن الأمور اليسيرة من جانبك تبدو كبيرة في أعين الناس، فكيف بما فعلته الآن؟. وهنا يظهر ابن أبي ربيعة مدى معرفته بنفسية المرأة وتصرفاتها وألفاظها الخاصة وأثر المفاجأة عليها.

٢٩ ـ أريتك: بدالي منك، هنا عليك: لم تعد تهمك سمعتي، وقيت: دعاء له بالحفظ والسلامة حضر: جمع حاضر.

تخاطبه نعم قائلة: يبدو لي أن سمعتي لم تعد تهمك وإلا لما أقدمت على ما أقدمت عليه، ثم كيف لم تحسب حساباً لأعدائك وهم حاضرون في الحي!؟ كلي أمل أن يحفظك الله من أعدائك.

٣٠ ـ تحذر: تخشى. تقول: يقيناً أنني لا أعلم أكان قدومك لقضاء حاجة على جناح السرعة أم لاطمئنانك على أن من تخشى خطرهم قد ناموا (والواقع أنه جاء إليها لهيامه بها ثم لأن قومها ناموا).

٣١ ـ يقول: أجبتها أن الباعث على زيارتي لها هو شوقي لرؤيتها وحبي لها، وطمأنتها بأنني قد وصلت إليها دون أن يحس بي أحد من الناس فهو قد ذكر في أبيات سابقة أنه وصل إليها بعد أن غاب القمر وروح الرعيان ونام السمار ولم يعد أحد يتجول في الحي عندها انسلَّ إلى خبائها مطمئناً.

٣٢ ـ لانت: هدأت، أفرخ روعها: اطمأنت وزال اضطرابها، كلاك: كلأك أي حفضك ورعاك، قالت بعد أن هدأت نفسها وزال اضطرابها: ليحفظك الله ويرعاك من كل سوء.

٣٣ ـ أبو الخطاب: كنية عمر (استخدام الكنية يدل على الاحترام عند العرب) غير مدافع: غير منازع، ما مكثت: ما بقيت. مؤمر: صاحب الأمر، أي أنت تأمر وأنا أطيع. (كني بأبي الخطاب تيمناً بعمر الفاروق).

قالت: فأنت يا أبا الخطاب صاحب الأمر دون منازع ما بقيت في بيتي، فأنت تأمر وأنا أطيع. (هنا يشير إلى أنه السيد المطاع وهو يعكس لنا ما يفتقده من السلطة السياسية).

٣٤ ـ بعد أن اطمأن عند محبوبته التي جعلته أميرها وسيدها قضى ليلته هادىء الحال مطمئناً وقد استقر به المقام عند نعم التي تعب في الوصول إليها ولذلك مكث ليلته مع نعم بسرعة دون أن يشعر بها.

٣٥ ـ الشعراء يكثرون من القول في طول الليل عند الهجر والبعاد، وقصره عند التلاقي.

يتعجب الشاعر من قصر ليلته التي قضاها مع محبوبته نعم، نظراً لأن لياليه السابقة كانت تتصف بالطول فلقاء الأحبة يمر بسرعة لأن كله شوق وحب واطمئنان، أما قبل ذلك فليله طويل لأنه تفكير وسهر وسفر.

٣٦ ـ ملهى: مكان اللهو، يكدره: يعكر صفوه.

يتعجب الشاعر من خباء الحبيبة الذي كان في تلك الليلة بمثابة ملهى ومجلس لهما لم يكدر صفوه أي شيء فلم يعلم بلقائهما أحد ولم ينغص هذا اللقاء إنسان من أقاربها وغيرهم.

٣٧ ـ يمج: يخرج، ينشر، مقبل: أراد به فمها لأنه موضع التقبيل، الثنايا وهي إحدى الأسنان الأربع من مقدم الفم: ثنتان من فوق وثنتان من أسفل، والغروب: حدة الأسنان ودقتها، المؤشر: من التأشير وهو أن تحدد المرأة أسنانها وترققها، نقي الثنايا: كناية عن النعمة وعن صغر السن. (هذا البيت والذي يليه وصف لمفاتن نعم ومواطن الحسن فيها وهي القيم الجمالية المحببة للعربي)

يقول: تنبعث من فمها رائحة طيبة كرائحة المسك، وتنفرج شفتاها عن أسنان دقيقة ناصعة البياض كحبات البرد النقية.

٣٨ ـ افتر عنه: يريد إذا ما ضحكت فبدا فمها، البرد: حب الغمام الذي ينزل مع المطر، الإقحوان: نبت طيب الريح، منور: أي قد ظهر نوره، فتفتح (أي زهره المتفتح).

يقول: عندما تنفرج شفتاها تبدو أسنانها في فمها كحب البرد أو كأزهار الإقحوان المتفتحة. فهي طيبة الرائحة، رائعة الجمال.

٣٩ ـ ترنو: تنظر ـ تتطلع، الخميلة: الشجر المجتمع الكثيف، الظبية: أنثى الغزال، الجؤذر: ولد الظبية أو ولد البقرة الوحشية.

يقول: أنها كانت تنظر إلي بعينيها كنظرة صغير الظبية أو صغير البقرة الوحشية إلى أمه في وسط حديقة ملتفة الأشجار. (فالنظرة هنا نظرة براءة وأمل وتوقع للعطاء). هنا تظهر الروح الأنثوية عنده بوضوح فهو يشبه نفسه بالظبية وبالغزال الصغير.

٤٠ ـ توالي: بقايا، تتغور: تغيب.

أقله: القليل منه.

يقول: وعندما انقضى الليل ولم يبق إلا جزء يسير منه، وأوشكت النجوم المتبقية أن تغيب. (من هذا البيت بدأ الشاعر ينسج العقدة في قصته).

٤١ ـ هبوب: استيقاظ ـ نهوض من النوم، ولكن موعد منك: أي موعد لك جديد، عزور: اسم مكان.

يقول: أشارت نعم بأن موعد استيقاظ أهل الحي قد حان، وإن علي الانصراف، ثم حددت موضعاً يقال له عزور ليتم لقاؤنا القادم فيه.

ـ انتشار عادة اللقاء وضرب المواعيد بين الأحبة في هذه البيئة.

٤٢ ـ لاح: ظهر. يقول: ولم يفزعني في تلك اللحظات إلا صوت مناد

يدعو أهل الحي إلى النهوض والرحيل، وكان نور الصبح الأشقير قد ظهر وبان. (هنا بلغت العقدة قمة تأزمها بتوالي الأحداث وكثرة المفاجآت).

٤٣ ـ يقول: فلما رأت نعم من استيقظ من أهل الحي، طلبت مني إبداء الرأي في كيفية التوصل إلى مخرج لنا من هذا الموقف الحرج.

٤٤ ـ أباديهم: أبدو لهم ـ أظهر أمامهم. يقول: رأيي أن أظهر لهم، فإما أن أستطيع النجاة منهم، وإما أن يأخذوا ثأرهم مني (يقدم الحل الخاطىء للعقدة لأن الحل في مثل هذا الموقف يجب أن يكون للمرأة مما يدل على عميق فهمه للمرأة)

٤٥ ـ الكاشح: الذي يضمر لك العداوة، ويؤثر: أي يتناقله الوشاة ويذيعونه عنا، يقول: لقد سألتني نعم هل تريد أن تقدم الدليل على صدق ما كان يقوله الأعداء عنا وما كانوا يروجونه حولنا فهذا الحل الذي قدمته مرفوض لأنه سيؤدي إلى افتضاح أمرنا وانكشاف سرنا.

٤٦ ـ أدنى: أقرب تقول: فإن كنت قد عقدت العزم على الخروج من الحي، فهناك وسيلة أخرى لذلك غير ما ذكرت، وقد تكفل لك التخفي وتضمن عدم افتضاح أمرنا وهنا تبدو المرأة أكثر مقدرة وأوسع حيلة للخروج من مثل هذه المواقف مما يدل على مقدرة عمر وعلمه بالمرأة وأحوالها.

٤٧ ـ بدء حديثنا: أوله. قالت: أقص على أختي حكاية علاقتي بك من أولها، ولا يضرني التأخر في إعلامهما بها فالمرأة لا تفشي سرها إلا لمثلها فهذا التدرج في حل العقدة جاء مناسباً ومتفقاً مع القصة.

٤٨ ـ السرب: النفس، أحصر: أضيق بما عرس لي فأعجز عن التفكير فيه ولا أجد لي مخرجاً منه، ترحباً سرباً: يتسع صدرهما.

قالت لعلهما تجدان لك مخرجاً من هذا الموقف المشكل ويتسع صدرهما للتفكير بحل مناسب لهذه المشكلة التي ضقت بها ذرعاً وأشعر بعجز عن التفكير فيها.

٤٩ ـ كئيباً: في غم وسوء حال وانكسار، ليس في وجهها دم: شاحبه تذري عبرة: تذرف دمعة، تتحدر: تتساقط على وجنتيها.

يقول: لقد نهضت وهي في غاية الحزن والغم وتذرف دموعاً تتساقط على وجنتيها الشاحبتين (هنا تصوير نفسي لأبرز شخصيات القصة وهي نُعم في حالة من الخوف والحزن والرجاء والأمل في النجاة).

٥٠ ـ حرتان: يريد أختيها، خز: حرير منسوج، الدمقس: نوع من الحرير يقول: لقد نهضت إليها أختاها وهما تلبسان ثوبين من الحرير الأخضر، فهو يصور نعم وأهلها في غاية من الترف وحياة النعيم.

٥١ ـ طلبت من أختيها أن تساعداها في إيجاد مخرج لعمر الذي أتى زائراً انطلاقاً من تقديرها لأبعاد المأزق الذي ألقت نفسها وإياه فيه.

فالتشاور في الأمر وبحث الحلول والأراء قد يؤدي إلى إيجاد حل مناسب لهذا الأمر الخطير.

٥٢ ـ ارتاعتا: خافتا، أقلي عليك اللوم: هوني عليك، الخطب: المصيبة أيسر: أسهل مما تظنين.

يقول: عندما أتت أختاها إلى الخباء ورأتاني فيه ظهر عليهما الخوف، ثم خاطبتاها قائلتين: هوني عليك فالأمر أيسر مما تظنين ومن السهل أن نجد مخرجاً مناسباً لهذا المأزق (وهذا يدل على كثرة المغامرات في هذه البيئة.

٥٣ ـ المطرف: رداء من خز مربع ذو إعلام، الدرع: القميص، البرد: الثوب المخطط، يحذر: يخاف من اكتشاف أمره.

يقول: أن أختها الصغرى اقترحت أن تعطيه ثيابها ليلبسها، فيبدو وكأنه واحدة منهن إن كان يخشى اكتشاف أمره وهذا يدل على أن جسم عمر وهيأته كانت في حجم الفتاة الصغرى.

٥٤ ـ يفشو: يظهر ـ ينكشف. تقول: الصغرى: بعد أن يلبس ثيابي يقوم فيمشي بيننا متنكراً بها فيبدو لأهل الحي وكأنه واحدة منا وبذلك نضمن

عدم افشاء سرنا وعدم تعرف أهل الحي عليه .

٥٥ ـ المجن : الترس ، الكاعب : الفتاة في بداية بلوغها ، المعصر : الفتاة في سن الشباب لقد خرج الشاعر متخفياً في ثياب الصغرى ومعه أختا نعم فأصبح الثلاثة يبدون للناظر من بعيد كأنهم بنتان أو جاريتان صغيرتان في بداية بلوغهما (هو والصغرى) وفتاة أكبر منهما قليلاً (الوسطى) .

٥٦ ـ أجزنا ساحة الحي : قطعنا المكان الذي يقيم فيه أهل الحي ، تتقي الأعداء : تحذرهم وتجعل لنفسك وقاية منهم .

يقول : بعد أن تجاوزنا المكان الذي يقيم فيه أهل الحي وشعرت الفتيات بالأمان قلن لي : كيف لم تجعل لنفسك وقاية من أعدائك وقد أتيت إلى حيهم في ليلة مقمرة (مع العلم أنه لم يأت ولم يصل إلى خباء نعم إلا بعد غياب القمر الذي كان يفضح أمره) .

٥٧ ـ سادراً : غير مهتم ولا مبال بما تصنع ، ترعوي : تكف عما غلب عليك من طبع ـ تتراجع ، دأبك : عادتك .

يقول : قالت الفتيات لي : لقد تعودت طول عمرك على عدم الاهتمام وعدم المبالاة بما تصنع ، أفلا تخجل من عملك أو تتراجع عن غيك أو تفكر في تصرفاتك . فأنت تعرض نعم بهذه التصرفات إلى الخطر فيجب عليك أن تفكر في مصلحة نعم وسمعتها .

٥٨ ـ عند حضورك إلى الحي ثانية فأحرص على توجيه نظرك إلى ناحية غير ناحيتنا لكي يظن أهل الحي أن من تهواها تقيم في الناحية التي تنظر إليها وبذلك تبعد الشبهة عنا وهنا يظهر الشاعر لنا أنه معشوق لا عاشق ومطلوب لأطالب فهن يدعونه للزيارة رغم ما فعله بهن وعرضهن للمخاطر وهذه هي طبيعة عمر دائماً في غزلياته .

٥٩ ـ يتذكر الشاعر محاسن نعم ومواطن الجمال فيها بعد أن غادر حيَّها فيقول لم أنس أبداً ما تتميز به نعم من جمال الوجه النقي الصافي ومحاجرها

في غاية الجمال والروعة فهذه ستبقى في خيالي وتستولي على ذاكرتي ما دمت بعيداً عنها .

٦٠ ـ ٦١ : لم أتذكر ما قلته في ذلك الموقف الذي سلب عقلي فيه وكانت الأبل تستحث وتزجر لتسير مسرعة فأنا كنت في عجلة من أمري خوف افتضاح سري ولذلك ، كنت مضطرباً ولم أتذكر وقد رأيت عيونها وخدودها الصافية الجميلة سوى أنني قد قلت فاليهنـأ زوجها وأهلها ببسمتها الجميلة ورائحتها الزكية وجمـالها البديع فهذه آخر عبارة قلتها عندما غادرت حيها .

«يروي : هنيئاً لبعل العامرية» .

٦٢ ـ يصف الشاعر هنا رحلة العودة من ديار نعم ، حيث يبدأ بوصف الناقة التي كان يركبها في طريق عودته تلك فيقول : بعد أن انتهيت من زيارة نعم وخرجت من حيها بمساعدة اختيها قمت إلى ناقتي التي جئت بها إلى ديار نعم وقد أصيبت هذه الناقة بالضعف والهزال بعد أن كانت قوية وممتلئة حتى كاد لحمها يسقط بعد أن ذهب شحمها وذلك من كثرة ما كلفها عمر من السير ليلاً في الصحراء المقفرة في سبيل الوصول إلي نعم .

٦٣ ـ ويضيف قائلاً : إن مما أضعف ناقته بالإضافة إلى طول السفر وكثرة المسير ليلاً هو حبس هذه الناقة لقضاء حاجاته الصعبة التي تحتاج إلى قوة كبيرة وصبر طويل حتى أصبحت هذه الناقة كأنها بقية هودج خشبي تالف وقديم مشدود إلى بعضه بعضاً «يصف هنا مدى حبه لنعم ومدى تضحيته في سبيل الوصول إليها حتى أن ناقته القوية قد أعياها طول السفر بينمـا هو لم يتعب ولم ينفذ صبره من أجل حبه ومحبوبته» .

٦٤ ـ يصف هنا المكان الصحراوي المقفر الذي نزل به ليلاً ليشرب هو وناقته بعد هذا السفر الطويل في الصحراء المقفرة التي لا ماء ولا أنيس فيها حيث نزل الشاعر وناقته على هذا المـاء القليل في هذه الصحـراء التـي لم يطرقها أحد لبعدها .

٦٥ ـ ثم يصف لنا هذا المكان المقفر الذي نزل فيه ليلاً وصفا يدل على

أنه مكان مهجور فالعنكبوت قد بنى فيه بيتـه لأنـه لا أنيس ولا طارق لهـذه المنطقة المقفرة النائية ، ويشبه لنا هنا هذا المكان المقفر الذي نزله بأنه كقطعـة الجلد المنشورة لا ماء ولا حياة فيها وكل ذلك ليدلل على فقر المكان وقلة الماء فيه.

٦٦ ـ لم يعرف الشاعر في أي وقت من الليل ورد هذا الماء هل مامضى من الليل هو الأكثر (أي بعد منتصفه) أم هو أقل من ذلك (قبل منتصف الليل).

٦٧ ـ في هذا الوقت من الليل قمت إلى ناقتي السريعة في سيرها فهي تنهب الأرض نهباً لأنها عطشانه وتريد الوصول إلى الماء كي تشرب وتستريح ولذلك كانت هذه الناقة في سيرها وسرعتها كأنها مجنونة تلتفت أمامها وحولها ثم تذهب مسرعة نحو غايتها.

٦٨ ـ وهي في أثناء ذلك تشد رسنها من يدي وتقاومني بشدة لأنها تريد أن تمد رأسها للوصول إلى ذاك البئر الذي يحتوي على بعض الماء العكر الوسخ.

٦٩ ـ فهي تشدني بقوة كي تصل إلى الماء ولولا عنانها ورسنها الذي أمسكه وأشده بقوة لكادت أن تندفع نحو الماء وتقع وتتكسر وذلك من شدة عطشها في تلك الصحراء المقفرة الخالية من كل شيء.

٧٠ ـ ٧١ ـ وعندما تأكدت أن الضرر سيقع بها إن لم أرخ لها العنان كي تصل إلى الماء ، وتذكرت أنني بأرض مقفرة لا نصير لي ولا معين إلا هذه الناقة أرخيت لها العنان قليلاً حتى وصلت إلى جزء صغير من حوض المـاء يقارب الشبر أو هو أصغر من ذلك. حتى أنها إذا مدت مشافرها (شفاهها أو مقدمة فمها) للشرب ووضعت مقدمة فمها فقط. فهو لم يرخ لها العنان بالكامل لتشرب كما تشاء وذلك لأن الماء قليل ووسخ كما أن الناقة التعبة إذا شربت كثيراً وهي لا زالت تعبة أصيبت بالضرر.

٧٢ ـ ونتيجة لقلة الماء لم يوجد هناك دلو لتعبئته بالماء كما هي العادة ولكن بدل الدلو كان هناك القدح الصغير الذي يرتوي به الرجل فقط وكان هذا القدح مربوطاً بسير من الجلد المجدل أو المضفر (من ضفيرة الشعر). «هذا

الوصف دليل قلة الماء وأن المنطقة صحراء مقفرة وإن معاناة الشاعر وناقته كانت شديدة» .

٧٣ ـ ورغم أن الماء وسخ ومتعكر وقليل ورغم أن عمر لم يرخ العنان لها كي تشرب كما تشاء ، إلا أنها شمت الماء قليلاً ثم اندفعت تشرب الماء رغم كونه وسخاً أو مطروقاً من قبل .

«انتهى الشاعر من وصف رحلة العودة على ناقته في تلك الصحراء المقفرة والماء القليل والليل الحالك» .

دراسة قصيدته (الرائية الكبرى)[1]

الآن وبعد أن انتهينا من الدراسة الأدبية لهذه القصة العاطفية الطويلة لا بد لنا من التوقف قليلاً فنسجل بعض الملاحظات المتصلة بها والتي تلقي عليها الأضواء وتكشف لنا عن أهميتها وأبعادها وأبرز خصائصها الفنية والأسلوبية، وما تميز به صاحبها من فن شعري متميز وما تفرد به بين الشعراء الغزليين، فإلى هذه الخصائص والميزات:

١ ـ مكانة القصيدة:

تنفرد قصيدته هذه بالميزات التالية:

أ ـ هي أطول قصائده التي قالها في ديوانه.

ب ـ أكثر قصائده صلة به ودلاله عليه.

ج ـ أكثر قصائده تصويراً لبيئة الحجاز في العصر الأموي.

د ـ أكثر قصائده شهرة وانتشاراً ما جعل ابن عباس المحدث الشهير، يترك مجلسه بالمسجد ويطلب إلى عمر أن ينشده إياها كما نقل ذلك المبرد في الكامل وأبو الفرج في الأغاني. وكان من شهرتها أيضاً أن حفظها يزيد بن معاوية وعائشة بنت طلحة كما أن سعيد بن المسيب قاضي القضاة

---

(١) تمييزاً لها عن رائيته الصغرى التي منها أبياته المشهورة.

قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى: نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر

وأمام الفتوى في عصره أنكر على ابن أبي ربيعة قوله ـ قمير ـ فيقول « . . . قاتله الله ، لقد صغر ما عظم الله ، فالله يقول» «والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم»

٢ ـ أقسام القصيدة:

تقسم قصيدته إلى ثلاثة أقسام هي:

أ ـ القسم الأول: وهو مقدمة غزلية تحدث فيها عمر عن حبه واشتياقه لنعم وما يعانيه جراء هذا الحب، متحدثاً في أثناء ذلك عن موقفه معها في مدفع أكنان وعن الرسول وأقاربها . . . إلخ.

ب ـ القسم الثاني: وهو يختص بحكاية ليلة ذي دوران وما كان من تحايله ولقائه ومفاجأته لها وحواره معها وقضائه ليلة بببيتها، وما يتخلل ذلك من وصف محاسنها، ثم بزوغ الفجر عليهما، وكيف خرج من المأزق.

ج ـ القسم الثالث: وفيه نرى الشاعر ينعطف انعطافاً حاداً وكأنه استحال شاعراً آخر يعني بالوصف الفني على عادة شعراء الجاهلية حيث يخصص الأبيات الثلاثة عشر الأخير لوصف مطيته وما كان منها في تلك الصحراء قليلة الماء والأنيس.

٣ ـ الاتجاه القصصي في القصيدة:

ومع أن الاتجاه القصصي في الشعر العربي قد ظهر أول ما ظهر عند عنترة العبسي ثم مع أمرىء القيس الذي يحدثنا في أشعاره عن بعض النواحي القصصية في علاقته مع عنيزة أو لحين يحدثنا عن يوم عقر الناقة للعذاري أو عن مغامرته في داره جلجل إلى غير ذلك من الجوانب القصصية في غزلياته.

إلا أن هذا الاتجاه القصصي لم يتبلور ويظهر كفن مستقل ومتميز إلا في مغامرات ابن أبي ربيعة وغزلياته. فهذا النهج القصصي عند عمر بن أبي ربيعة هو ما تجلى بوضوح في رائيته الكبرى التي نحن بصدد دراستها والتي جاءت على النحو التالي: ـ

أ ـ أسلوب السرد القصصي للأحداث والوقائع وتقصد العمل القصصي عنده حتى تصبح القصيدة الشعرية عنده قصة ذات طابع تمثيلي فيها الكثير من عناصر المسرحية ومواد بنائها.

ب ـ عنصرا الزمان والمكان نلمحهما بوضوح في قصة ذي دوران فالوقت ليلاً وقد غاب القمر وروح الرعيان ونام السمار أما المكان فهو ذو دوران هو موضع بين قديد الجحفة وهو في أثناء ذلك يكشف لنا عن بعض المواقف المتنوعة الغنية فهو حيران كيف يتعرف إلى مكان وجودها ودلالة القلب عليها ثم مفاجأتها بشكل فيه اللذة والخوف.

ج ـ الحوار القصصي: ـ هو حوار مزدوج، داخلي يتمثل في هذا الحوار بينه وبين نفسه وخارجي بينه وبينها أو بينها وبين أختيها أو بينه وبين أختيها وبينه وبين الرسول أو بينها وبين أسماء. ويتضح من هذا الحوار الذاتية المفرطة والنرجسية الحادة حيث جعل الحوار يدور حول نفسه حتى ذلك الحوار الذي دار بين نعم وأسماء أو بينها وبين أختيها أو بينها وبينه فمحور الحديث والحوار كان حول عمر وحبه. وقد كشف لنا الحوار عن بعض أسرار النفوس عندما كشف لنا من خلال هذا الحوار عن مدى حبها له وعن أجواء القلق «وقالت وعضت بالبنان . . . . . .».

د ـ الشخوص في القصة: وهي تنقسم إلى قسمين رئيسيين متمثلة في عمر ونعم، وثانوية: متمثلة في أسماء وأخوات نعم والرعيان والسمار . . . إلخ.

هـ ـ العقدة (الحبكة القصصية): ـ وقد بدأت العقدة تتشكل منذ قوله (فلما تقضى الليل إلا أقله . . .) ثم تبدأ العقدة بالتطور شيئاً فشيئاً إلى أن تصل إلى نقطة التأزم وتبلغ الذروة عندما يلوح الفجر وهو لا زال في ديارها

فما راعني إلا مناد ترحلوا وقد لاح معروف من الصبح أشقر

ثم يبدأ الشاعر بوضع الحلول لهذه العقدة وهذا المأزق فيطرح حلّه الذي ينبىء عن نزعة الفروسية والغرور عند الشاعر ثم لا يلبث أن يهتدي إلى

حل يتفق ومنطق الأنثى وقدرتها على المخادعة والتستر والاحتيال وفي قبوله بالحل الذي طرحته نعم يكشف لنا الشاعر مدى معرفته واطلاعه على سلوك النساء وفهمه لتفكيرهن وكل ذلك ليكشف لنا عن تربيته الخاصة في أحضان النساء ومقدرته على التحدث بألسنتهن.

كل ذلك يبرزه من خلال الحركة النشيطة والمناسبة فهي سريعة عندما يتطلب العمل ذلك، وبطيئة عندما يلزم الأمر ذلك. وهكذا نرى أن عمر قد نجح في حشد جميع عناصر العمل المسرحي الناجح في قصته هذه من حيث العرض والحوار والعقدة والحل ومن الحوادث والشخوص ومن المشاهد والحركة والحياة ما جعل عمر وبحق رائد القصة الشعرية في أدبنا العربي على الاطلاق.

٤ - شخصية عمر من خلال القصيدة: -

تتبدى لنا شخصية عمر أكثر تألقاً وإشراقاً وسطوعاً في القسم الأول من رائيته ففي هذا القسم توشك شخصية عمر أن تكون محور الأبيات وهدفها وغايتها فهو يستخدم في هذا القسم الأسلوب التجريدي حيث يجرد شخصاً يخاطبه ليكشف لنا عن ذاته ويظهرها على غيرها وهذا ما يشتهر به عمر فهو يعتز بنفسه كثيراً ويقدمها على غيرها في القصائد كلها فهو المعشوق دائماً والمطلوب من قبل النساء مهما علت منزلتهن حسباً ونسباً وشرفاً ورفعة. ولذلك كانت شخصية عمر هي الباعثة لقصة ذي دوران وهي المحركة لأحداث القصة وشخوصها ومختلف عناصرها فهي المركز والقطب الذي يدور من حوله كل شيء في القصة ولذلك جاء القسم الثاني من القصيدة لتسيطر عليه الأحداث وتكاد شخصية عمر تختفي وتتضاءل بين الأحداث فعمر كما هي عادته في معظم قصائده حريص على أن تتبدى شخصيته وتتفوق على الجميع فالظهور عنده رغبة لا تطولها رغبة. فهي شخصيّة تصطنع الأحداث لتظهر من خلالها، وهي شخصية مرموقة ترمقها النساء المحبات له ويرقبها الأعداء المتربصون به وهو بهذا يصطنع لنفسه الأعداء كي يظهر أهميته وتأثيره.

ولذلك يرسم لنا عمر من خلال هذه القصيدة نفسيته ويكشف لنا عن أعماقها وابعادها وميزاتها من وجهتين.

أ ـ الاستعلاء على النساء في حبه: ـ

فهذه الصفة تنعكس من خلال جميع أشعاره الغزلية فهو لا يتذلل ولا يتشوق ولا يشكو من الصد والهجران كبقية الشعراء المحبين العاشقين، بل على العكس من ذلك تماماً نرى النساء يعرضن له، ويرقبنه ويتحدثن عنه ويطرين عليه وعلى صفاته، ولذلك نرى أنه وبالرغم من ترويعه وتخويفه لمحبوبته التي فاجأها بالزيارة نراها تدعو له بالرعاية والحفظ من الله.

في تصويره لحياته وشخصيته ونفسيته نلمس أن الشاعر يعكس لنا نوعاً من التعويض، فإذا كانت السياسة قد اهملته رغم شرفه ونسبه وثرائه، فقد وجد ضالته في هذا الفن ليتفوق فيه على غيره، فهو يستعلي في حبه على النساء كتعويض لما فقده من الاستعلاء في الحياة السياسية في ظل بني أمية.

ب ـ التقلب في نفسيته وعدم الثبات فيها: ـ

فحبه للمرأة حب حسي خالص فإذا ما قضى منها وطراً وتحصل على بغيته غادرها إلى غيرها فالمتعة الحسية هي غايته ومنتهى طلبته.

فبت قرير العين اعطيت حاجتي اقبل فاها في الخلاء فأكثر

وقد نجح عمر في أثناء ذلك في وصف المرأة نجاحاً يفوق وصفه لنفسه فهو يكشف لنا من خلال شعره عن جوانب متعددة من نفسية المرأة وعالمها الداخلي. فقد وصف لنا ما يدور في مجتمع النساء عندما تخلو الفتيات إلى أنفسهن يتهامسن ويتحدثن ويشرن ثم نراه في قسم آخر من رائيته يتحدث لنا عن المفاجأة وما كان منها من التوله، وانخفاض الصوت بالتحية، والعض على بنانها... إلخ.

وينتهي به الأمر إلى الكشف عن نفسية الأنثى وبراعتها في الحيلة وتدارك الأمر دون عنف عن طريق إستشارة أختيها وهي لا تنسى في غمرة هذه الأحداث أن تدعوه مرة أخرى على لسان أختيها.

لقد وفق عمر إلى حد كبير في الكشف عن عالم المرأة الداخلي وبخاصة موقفها من الحب والمحب.

٥ ـ مدى تصوير القصيدة للبيئة الحجازية: ـ

أ ـ لقد عكس لنا عمر بن أبي ربيعة من خلال قصيدته هذه الحياة الحجازية بشكل عام والجانب المترف اللاهي من هذه الحياة بشكل خاص، فتحدث لنا بأسلوب قصصي واضح ما يدور في هذا المجتمع من مغامرات عاطفية ومواعيد عشق بين المحبين وما يتطلبه ذلك من إرسال الرسل بين المحبين، وما كان يعقد في هذه البيئة من مجالس السمر واللهو وهو بذلك استطاع أن يكشف لنا بوضوح عن هذا الجانب المترف اللاهي في الحياة الحجازية والذي انغمس فيه المولدون من الرجال والنساء والجواري من رومية وفارسية وغيرها، بالإضافة إلى أبناء المترفين من العرب الحجازيين، الذين حرموا من السياسة والعمل فيها فرأوا في الترف واللهو ما يحقق لهم بعض ما فقدوه من جاه وسلطان.

ب ـ أما الجانب الآخر من الحياة الحجازية وهو جانب الزهد والعبادة والتفقه في الدين والحديث والقرآن فلم يتطرق إليه عمر ولم يتحدث عنه لا من قريب ولا من بعيد بالرغم من تربيته الدينية على القرآن والسنة والحديث.

آية ذلك كله أن عمر قد خالف الشعراء العرب الغزليين منهم خاصة ـ في بناء القصيدة الغزلية، فقد خالفهم في تعدد الموضوعات فجاءت قصيدته في موضوع واحد، خالفهم في هيكلها العام عندما اتجه في بنائها وجهة قصصية، خالفهم في التقاليد الأصلية للقصيدة العربية فلم يقف فيها على طلل دارس أو بيت خرب، وخالفهم فوق ذلك كله في لغة الشعر وتراكيبه وصوره فجاءت لغته قريبة من الافهام بل تصل في مستواها إلى مستوى اللغة اليومية التي يتعامل بها الناس في حياتهم اليومية ولذلك ابتعد الشاعر عن الغلو والمغالاة في التشبيه أو التصوير.

الدراسة الفنية

الأسلوب : -

١ - يتبع الشاعر في قصيدته هذه أسلوب الرد القصصي التمثيلي القائم على السرد والتتابع لأحداث القصة وقد طبع ذلك شعره بطابع السهولة والرقة وهذا ما جعل شعره أقرب منه إلى لغة الناس اليومية.

وهذا يعني أن عمر قد سما بالعمل الفني في قصيدته سمواً لم يعرفه العرب من قبل خاصة هذا القص الطويل الغني بالحركة والحوار تتناوله الشخوص والمشاهد ويتتابع فيه العرض وتتعقد فيه الأحداث وتتأزم لتصل إلى العقدة ثم تبدأ تتحول شيئاً فشيئاً نحو الحل.

٢ - اعتمد الشاعر الواقعية ونعني بالأسلوب الواقعي هو أن ما تحدث عنه الشاعر سواء أكان حقيقياً أم متخيلاً ممكن الحدوث إنما هو من واقع مجتمعه وبيئته الحجازية فهو يصور مغامرات من واقع ذلك المجتمع الذي يعيش فيه. ولكي يحقق هذه الواقعية ويصدق فيها إلى أبعد الحدود فقد لجأ الشاعر إلى أسلوب المباشرة وقرب التناول والبعد ما أمكنه عن السرد والاستطراد ولذلك نراه لا يبتعد ولا يتعمق في توضيح المعنى وشرحه فإذا أراد وصف محاسن نعم تناولها مباشرة في بيت واحد.

تراه إذا ما افتر عنه كأنه ... حصى برد أو أقحوان منور

وإذا أردنا وصف ريقها وصفه أيضاً في بيت واحد:

يمج ذكي المسك منها مقبل ... نقي الثنايا ذو غروب مؤشر

دون أن يضطره ذلك إلى الاسهاب والاطالة في شرح صفاتها ومحاسنها.

٣ ـ استخدامه لأسلوب الحكاية والقص والعزوف عن أسلوب التشبيه والصورة، ولذلك ابتعد عن التشابيه المعقدة وإن اضطر إليها جاءت يسيرة بسيطة وسطحية لا إغراق فيها، فقد استبدل في كثير من المواقف الصور والتشابيه بأسلوب القص السهل المستساغ ونراه يكتفي بنقل الوقائع والأحداث هذا النقل اليقظ في غير تصنع، والبسيط في غير تكلف، والقوي في غير ضعف أو ركاكة، فجاء التشبيه عنده عرضاً غير مقصود لذاته.

٤ ـ لم يقف عمر في رائيته هذه وقفة الجاهليين على الأطلال فهو لم يكن بحاجة إليها كما أنه لا مكان لها في القصيدة فالمحبوبة والمحب من بيئة حضرية مترفة كما أن أسلوب المباشرة وقرب التناول لا يناسبه الوقفة الطللية فهو أسلوب تقريري واقعي.

٥ ـ تميز أسلوبه أخيراً بالقوة والفصاحة وزاد من جماله تلك الموسيقى العذبة التي اكسبها إياها البحر الطويل وتفعيلاته.

اللفظ والمعنى (اللغة والتركيب):

١ ـ خضعت لغة الشاعر في قصصه إلى أسلوبه الواقعي القريب والمباشر ولذلك جاءت لغته بسيطة قريبة من عامة الناس وكذلك جاءت تراكيبه ميسرة مفهومة بعيدة عن التعقيد وخفيفة سهلة بعيدة عن التكلف أو التقعر.

٢ ـ نتيجة لانقطاع عمر لهذا الفن وإخلاصه له جاءت لغته مصقوله صقلاً اقترب بها إلى اللين والبعد عن الجزالة التي عهدناها عند الجاهليين. ولذلك تجردت لغة الغزل عنده من صعوبة الألفاظ، وعسر التراكيب وحاول جاهداً أن تكون لغته أقرب إلى اللغة السليمة التي يتحدث بها الناس في حياتهم اليومية. انظر إلى لغته وتراكيبه هذه «ليس في وجهاً دم . . . ، أما تستحي أو ترعوي أو تفكر، فقالت وعضت بالبنان فضحتني إلى غير

ذلك من التراكيب والألفاظ التي تثبت لنا أن عمر كان يريد لشعره هذا الذيوع والانتشار على ألسنة الناس عامتهم وخاصتهم في المجالس والمتنزهات وبين جموع النسوة بشكل خاص ليكون موضوع حديثهن الرئيسي والأساسي.

٣ ـ إن أهم ما يميز لغة عمر في شعره هو تطويعها للحياة اليومية ووضعها في خدمة الحياة والناس مما جعلها يسيرة سهلة في ألفاظها ومعانيها ولينة في تراكيبها وميزة أخرى للغته وهي تطويعها لتناسب لغة الغناء وما يناسب ذلك من تنويع للأوزان والبعد عن الحروف المتنافرة والكلمات الثقيلة والتراكيب المعقدة. ونتيجة لتطويعها للحياة والغناء اقتربت لغته كثيراً من لغة النثر.

العاطفة:

١ ـ لا يشك أحد في أن عاطفة عمر في رائيته هذه بعيدة عن الصدق والواقعية فحبه ليس ثابتاً بل هو متقلب ومتغير فهو القائل: ـ

سلام عليها ما أحبت سلامنا فإن كرهته فالسلام على الأخرى

ولذلك لم يستطع عمر أن ينقل إلينا أو أن يجعلنا نشعر بحبه الصادق فهو الفتى المترف اللاهي ذو الحسب والنسب الرفيع لا يمكنه أن يركب الناقة ويتجشم الصعاب ويركب المخاطر للوصول إلى محبوبته، وكيف يكون ذلك وهو الذي تلاحقه النساء وتغمزه دون أن يلتفت إليهن فهو يهجرهن ويصدهن، وليس كجميل بثينة وغيره من العذريين الذين صوروا لنا بصدق وواقعية حبهم الصادق والطاهر وعذاباتهم في سبيل من يحبون.

وهناك بعض المؤرخين للأدب وأهله، يرى أن عمر بن أبي ربيعة كان صادقاً كل الصدق في حبه وعشقه وليس تنقله بين محبوبته وأخرى بدعاً في عالم المحبين، كما أن الإخلاص في الحب لواحدة لا يعني الصدق في الحب، فعمر في رأي هؤلاء عاشق محب مخلص في حبه فقد أحب كل من ذكرهن في شعره حباً صادقاً فالتجربة العاطفية الشعورية صادقة عند عمر، غير أن حبه آني وقتي شديد التغير والتجدد بين الحين والآخر فهو متقلب الهوى أنه يستعمل الحب كأسلوب حياة دائم له.

الفصل السابع

مِنَ الشِّعرِ الأمَويّ

النقائض

النقائض في العصر الأموي

تعريفها : -

هي في العادة أن ينظم أحد الشاعرين المتناقضين قصيدة من وزن خاص وقافية خاصة ، ثم يأتي زميله فينقض قصيدته بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية .

تطورها وخصائصها : -

الهجاء قديم قدم الشعر العربي فقد عرف الهجاء بين الشعراء وبين القبائل العربية منذ العصر الجاهلي وقد كانت له في ذلك دوافعه وأسبابه وميزاته الخاصة به فقد أوجدته منذ البدأ المنافسات القبلية على الماء والكلأ ، كما أوجدته الحروب المستمرة بين هذه القبائل لخلاف أو سوء تفاهم يقع بينهما . ولما بزغ فجر الإسلام وأنار بضوئه أرض الجزيرة العربية ، استمر التهاجي بين شعراء الرسول ﷺ وعلى رأسهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وبين شعراء الكفر والشرك وعلى رأسهم عبدالله بن الزبعري وضرار بن الخطاب وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وقد كان الهجاء في هذين العصرين (الجاهلي وصدر الإسلام) فناً بسيطاً بعيداً عن التعقيد فالشعراء لا يتقيدون دائماً بالرد على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية كما هو الحال في النقائض . ولذلك كان الهجاء في هذين العصرين هجاءاً فردياً وغير منظم وغير مستمر تماماً كما هو الحال في القبائل العربية المتباعدة المتناثرة في الصحراء وما أن جاء العصر الأموي حتى تبدل الحال وتغير عن السابق تغيراً كبيراً وتبدل معه الهجاء أيضاً تبدلاً جذرياً وأساسياً فقد

استقرت القبائل العربية في البصرة والكوفة بعد أن كانت متناثرة متباعدة ، كما عادت العصبيات بين هذه القبائل بعد أن أحياها بنو أمية لاستغلال القبائل العربية وتوفير الاستقرار لسلطانهم . ولذلك تحول الهجاء في هذه البيئة الجديدة من فن متقطع كما كان في السابق إلى فن دائم مستمر كما اصبح الشعراء يحترفون هذا الفن ويتخصصون فيه ، وينقطعون له خاصة وقد اصبح له جمهوره ومأيدوه في سوق المربد بالبصرة وسوق الكناسة بالكوفة بحيث اصبح الهجاؤون في هذين السوقين أشبه ما يكون بالممثلين على خشبة المسرح أمام المشاهدين والمشجعين يحرص كل شاعر أن ينتصر على خصمه ليجذب إليه المشاهدين ويكثر من المؤيدين. كما أن شعر النقائض هذا له ميزة لم تتوفر لشعر الهجاء في السابق فمن المعروف أن شاعر القبيلة كان يدافع عنها ويفخر بها أما الآن فشاعر الهجاء ليس بالضرورة أن يكون شاعر قبيلته مدافعاً عنها بل إننا نجد جريراً يقف نفسه وينذر جهده للدفاع عن قيس والقيسيين أمام اليمانيين رغم كونه تميمياً بل أن تميماً كانت على خلاف وخصومة مع قيس ، وبذلك يمكننا القول إن فن النقائض (الهجاء) قد حصل عليه في هذا العصر تغيير من حيث الغاية ومن حيث الصورة فقد اصبحت غايته الامتاع والتسلية واللهو فقد استقرت القبائل العربية واكتفت من الفتوح والغزوات ودواوين الحكومة وليس أمامها إلا قضاء أوقات الفراغ والتلهي في سوق الكناسة والمربد. أما من حيث الصورة فقد اصبح فناً دائماً ومستمراً له رجاله وشعراؤه الذين يحترفونه احترافاً وكان لهؤلاء الهجائين ثقافة واسعة كي يؤدوا هذا الفن على أحسن وجه ، فلا بد للشاعر من معرفة كاملة وعميقة بالقبائل المهجوة وأنسابها وأيامها ومالها وما عليها ولذلك كان هجاؤه يقوم على أساس من البحث والدرس في تاريخ القبائل العربية . ولذلك اكتسب هذا الفن بعداً تاريخياً مهماً فالنقائض تعتبر وثائق تاريخية مهمة من هنا كانت نقائض جرير والأخطل من أهم المراجع التي يرجع إليها ويعتمد عليها في دراسة قبائل تغلب وقيس وتميم ومن اتصل بهم من القبائل العربية وما كان بينها من خصومات كما تعتمد على الحياة الإسلامية الحديثة وما طرأ عليها من ظروف سياسية ولذلك

كان هناك بعداً آخر اكتسبه هذا الفن في هذا العصر ألا وهو البعد السياسي فالظروف السياسية الجديدة التي جاء بها الأمويون وكذلك الظروف العقلية والفكرية والدينية التي تميز بها هذا العصر قد انعكست في شعر هؤلاء الهجائين. فكان الهجاء في سوق المربد والكناسة أشبه ما يكون بالمناظرات الأدبية الطريفة فالشاعر الذي ينقض قصيدة شاعر آخر يتعرض لمعاني زميله فيردها معنى معنى على نفس الوزن والقافية ليثبت للمشاهدين في السوق تفوقه عليه من حيث الموسيقى والصياغة الفنية إلى جانب تفوقه في الهجاء والفخر. وكأن الشاعر في هذا العصر اصبح يدافع عن عقيدة اعتنقها وأفكار آمن بها فلا بد من دفع الحجة بالحجة ومناقشة الفكرة بالفكرة والدليل بالدليل وأغلب الظن أن هذا الفن على هذه الشاكلة كان صدى وانعكاساً لمجالس المتكلمين وأصحاب الفرق في هذا العصر. وهكذا اصبحت النقيضة في هذا العصر تتألف من عناصر جاهلية قديمة تتمثل في هذا الحس التاريخي المتصل بتاريخ القبائل العربية كما تتألف من عناصر جديدة وهي الظروف السياسية والدينية المتصلة بالدولة الحديثة كما أن التقدم في هذا الفن لم يعد يعتمد على التفوق في الاقذاع والايلام فحسب بل يعتمد على مدى ما يقدمه للجمهور من متعة واضحاك وسخرية من الخصم. ولا شك في أن الشعراء وفي خضم هذه النقائض قد ولدوا الكثير من المعاني الجديدة التي لم نعهدها في العصور السابقة والتي كانت محصلة وثمرة لهذا التقدم والرقي العقلي الذي احرزه الفكر العربي في هذا العصر.

جرير يهجو الأخطل

وقال جرير يهجو الأخطل بعد أن انحاز هذا الأخير إلى جانب الفرزدق ضد جرير فما كان من جرير إلا هذا الرد القاسي حيث طعن الأخطل في نسبه وشرفه حيث يقول: -

١ - بـان الخليطُ، ولـو طُوِّعـتْ ما بانا ... وقطعـوا من جبـال الوصـل أقرانا
٢ - حـيٌّ المنـازلَ إذ لا نبتغـي بدلاً ... بالـدار داراً، ولا الجـيران جيرانا
٣ - قد كنتُ في أثـر الأظعان ذا طربٍ ... مُروّعـاً من حِذار البـين مِحْزانا
٤ - يا رُبّ مُكْتئِبٍ، لو قد نُعِيتُ له، ... باكٍ، وآخـر مسرورٍ بمنعانا
٥ - لو تعلمين الذي نلقى أويتِ لنا، ... أو تسمعـين إلى ذي العـرش شكوانا
٦ - كصاحب الموجِ إذ مالـتْ سفينتُهُ ... يدعـو إلى الله إسراراً وإعلانا
٧ - يا أيهـا الـراكبُ المُزْجـي مطيّتهُ، ... بلّـغْ تحيتنـا، لُقّيتَ حُملانا
٨ - بلّـغْ رسّائـلَ عنـا خفّ محملُها ... على قلائصَ لم يحملن حيرانا

---

(١) الخليط: السكان المخالطون، بان: نأى وابتعد.

(٣) الطرب: الإهتزاز والإضطراب للفرح أو للحزن، والمراد الحزن. المحزان: الشديد الحزن.

(٤) يقول بعضهم بفرح بموته وبعضهم الآخر يغتبط.

(٥) يقول إنها لو تعلم عذابه لمالت إليه، فهو يبث شكواه إلى الله.

(٦) يقول إنه كمن يغرق في موج عاتٍ، يستغيث الله ويستنجده.

(٧) المزجي: من يسوق. الحملان: ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة، الهدية.

(٨) الحيران، الواحد حوار: ولد الناقة.

٩ ـ كيما تقــول إذا بلغــتَ حاجتنا: أنــت الأمــينُ، إذا مُستأمــنٌ خانا
١٠ ـ تهدي السلام لأهل الغور من ملحٍ، هيهــاتَ من ملــحٍ بالغــور مُهدانا
١١ ـ أحببْ إليّ بذاك الجزْعِ مَنْزِلَةً، بالطَّلْــح طلحــاً وبالأعطــانِ أعطانا
١٢ ـ يا ليت ذا القلبَ لاقى من يعلّلهُ، أو ساقياً فسقــاه اليومَ سلوانا
١٣ ـ أو ليتَهــا لم تُعلِّقْنــا عُلاقَتها؛ ولــم يكن داخَلَ الحُــبُّ الــذي كانا
١٤ ـ هــلاّ تحرجتِ مِما تفعلــينَ بنا، يا أطيبَ النــاس يومَ الدّجــنِ أردانا
١٥ ـ قالتْ: ألِمَ بنا إن كنتَ مُنطلِقاً، ولا إخــالُكَ، بعــد اليومِ، تلقانا
١٦ ـ يا طيبَ! هل من متاعٍ تُمتعينَ به ضيفــاً لكم باكراً، يا طيب، عجلانا
١٧ ـ ما كنتُ أولَ مشتاقٍ أخا طربٍ، هاجــت له غدواتُ البــينِ أحزانا
١٨ ـ يا أُمَّ عمــرو! جزاكِ اللهُ مغفرةً؛ رُدي عليَّ فؤادي كالــذي كانا
١٩ ـ الستِ أحسنَ من يمشي على قَدمٍ يا أملــح النــاس كلِّ النــاس إنسانا
٢٠ ـ يلقى غريمكم من غير عسرتكم بالبــذل بخــلا وبالإحســانِ حِرمانا
٢١ ـ لا تأمنــن، فإنــي غــير آمنه، غدْر الخليلِ، إذا ما كان الوانا
٢٢ ـ قد خنتِ من لم يكن يخشى خيانتكم ما كنــتِ أولَ موثــوقٍ به خانا
٢٣ ـ لقد كتمت الهوى حتى تهيمني؛ لا أستــطيعُ لهــذا الحــب كِتمانا

(٩) يطلب منه أن يبلّغ الرسالة ويستأمنه عليها.
(١٠) الغور: ما انحدر واطمأن من الأرض، وهو هنا موضع بعينه. ملح. موضع كذلك.
(١١) الجزع. محلة القوم. الطلح: شجر من العضاه ترعاه الإبل. الإعطان: مرابض الماشية
(١٢) السلوان في زعم العرب. شراب يسقاه المهموم، فينسى همه.
(١٤) تحرج، تجنب الحرج: الإثم: الدجن. الغيم المطبق المظلم. الأردان، الواحد ردن: أصل الكم، طرفه الواسع.
(١٥) يقول إنها أذنته بالرحيل.
(١٦) طيب، مرخم طيبة: اسم المرأة التي يشبب بها.
(١٧) غدوات البين: رحيل الفراق الباكر.
(٢٠) الغريم: هنا المغروم وأصلها العدو وصاحب الدين. العسرة: الفقر وتعسر ذات اليد. يقول إنه يبذل لها فتصد ويحسن فتسيء.
(٢١) يقول إنها متلونة، ولا يؤمن غدرها بخليلها.

٢٤ ـ كاد الهوى يومَ سلمانينَ يقتُلُني ، وكاد يقتلنـي يومـاً ببيدانا
٢٥ ـ وكاد يوم لوى حواء يقتلني لو كنـتُ من زفـراتِ البـينِ قُرحانا
٢٦ ـ لا بارك الله فيمـنْ كان يحسبكم إلا على العهـد حتـى كان ما كانا
٢٧ ـ من حُبكمْ ؛ فاعلمي للحب منزلةً نهـوى أميركمُ ، لو كان يهوانا
٢٨ ـ لا باركَ الله في الدنيا إذا انقَطَعَت أسبـابُ دُنياكِ من أسبـابِ دُنيايا
٢٩ ـ يا أُمَّ عثمانَ إن الحب عن عَرَضٍ يصبـي الحليمَ ويُبـكي العـينَ أحيانا
٣٠ ـ ضنَّتْ بموردةٍ كانت لنا شرعاً ، تشفي صَدى مُستهـامِ القلبِ صَديانا
٣١ ـ كيف التلاقي ولا بالقيظ محضركم منـا قريبٌ ، ولا مبـداكِ مبدانا؟
٣٢ ـ نهوى ثرى العِرْقِ إذلم نَلقَ بعدكم كالعـرْقِ عِرْقـاً ولا السُّلاَّن سُلانا
٣٣ ـ ما أحدث الدهرُ مما تعلمين لكم للحبْـلِ صُرْمـاً ولا للعهـد نسيانا
٣٤ ـ أبُدِّلَ الليلُ ، لا تَسري كواكبُهُ ، أم طال حتـى حسبـتُ النجمَ حيرانا
٣٥ ـ يا رُبَّ عائذةٍ بالغـور لو شهدتْ عزّتْ عليهـا بدَيْرِ اللُّـجِّ شكوانا
٣٦ ـ إن العيونَ التي في طرفِهَـا حورٌ قتلننـا ، ثمَّ لم يحيينَ قتلانا
٣٧ ـ يصرعن ذا اللُّبِّ حتى لا حراكَ به وهـنَّ أضـعفُ خلْـقِ الله أركانا

---

(٢٤) سلمانين وبيدان : موضعان .
(٢٥) لوى حواء : موضع باليمامة . القرحان : من مسته القروح .
(٢٦) يقول إنه كان يثق منها بعهدها .
(٢٧) الأمير : هنا من يقوم مقام الوصيّ عليها ، يأمرها فتطيعه .
(٢٨) الأسباب : هنا الحبال وهي كناية عن التواصل ، لا لذة للعيش إذا ابتعدت عنك .
(٢٩) عرض : دون تعمّد .
(٣٠) الموردة : مأتاة الماء والطريق إليه . الصدى : العطش الشديد . الشرع : النبع الذى لا دفع عنه ، الصدى والصديان : الظمآن والظمأ ، مستهام القلب : من قلبه هائماً محباً .
(٣١) مبداك : حيث تقيم في البادية .
(٣٢) العرق : واد لبني حنظلة . السلان : واد لبني عمرو بن تميم .
(٣٣) الصرم : القطع والهجر والبعد .
(٣٤) يشكو طول الليل لأرقه .
(٣٥) عائذة بالغور : مقيمة فيه ، دير اللج : دير بالحيرة .

٣٨ ـ يا رُبَّ غابطنا، لو كان يطلُبُكُمْ لاقى مباعدة منكمْ وحرمانا
٣٩ ـ أرينَهُ الموتَ، حتى لا حياة به؛ قد كنَّ دِنَّكَ قبل اليوم أديانا
٤٠ ـ طار الفؤادُ مع الخودِ التي طرقَتْ في النوم طَيبة الأعطافِ مِبْدانا
٤١ ـ مثلوجةَ الرِّيق بعد النومِ واضعةً عن ذي مَثانٍ تُمجّ المسكَ والبانا
٤٢ ـ تستاف بالعنبر الهندي قاطعة همَّ الضجيع فلا دنيا كدنيانا
٤٣ ـ بتنا ترانا كأنا مالكون لنا، يا ليتها صدقتْ بالحقِّ رُؤيانا
٤٤ ـ قالت: تعزَّ، فإن القوم قد جعلوا دون الزيارةِ، أبواباً وخُزّانا
٤٥ ـ لما تبينتُ أن قد حيلَ دونَهُمُ ظلَّتْ عساكرُ مثلُ الموتِ تَغشانا
٤٦ ـ ماذا لقيتُ من الأظعانِ يوم قِنَّى، يتبعنَ مُغترباً بالبينِ، ظعّانا
٤٧ ـ أتبعتهمْ مُقْلَةً، إنسانُها غرقٌ، هل يا ترى تاركٌ للعين إنسانا؟
٤٨ ـ كأن أحداجَهُمْ تحدى مُقَفّيةً، نخْلٌ بملهم، أو نخلٌ بقُرّانا
٤٩ ـ يا أمَّ عُثْمانَ! ما تلقى رواحلنا، لو قِستِ مُصْبَحنا من حيث مُمسانا
٥٠ ـ تخدي بنا نُجُبٌ دَمّى مناسِمها نَقْلُ الحزابي حزاناً، فحزانا
٥١ ـ ترمي بأعينها نجداً، وقد قطعتْ بين السلوْطَحِ والرَّوحانِ صُوّانا
٥٢ ـ يا حبذا جبلُ الريانِ من جبلٍ! وحبذا ساكنُ الرّيانِ من كانا

---

(٣٨) يقول أن من يغبطه قد يلقي مثل مرارته وحرمانه.

(٤٠) الخود: الشابة. المبدان: السمينة. طرقت: جاء طيفها ليلاً.

(٤١) واضعة: أي رافعة خمارها. عن ذي مثان: أي عن رأس ذي ذوائب، مثنية بعضها على بعض وهي الضغائر تمج تمضغ وتلوك.

الباان: شجر معتدل القوام ورقه كورق الصفصاف يؤخذ من حبه دهن طيب، الواحدة بانة.

(٤٤) الخزان: (الحراس).

(٤٦) الظعان: الكثير الإرتحال.

(٤٧) إنسان العين: بؤبؤها، يقول إنه أغرق عينيه بالدموع.

(٤٨) ملهم وقران: موضعان.

(٤٩) الرّواحل: المطايا.

(٥٠) النجب: المطايا. المناسم: سنام الناقة. الحزابي: الغليظ الضخم من الرجال.

(٥١) السلوطح والروحان: موضعان. الصوان، الواحدة صوة: العلم في الطريق يستعملونه للإرشاد.

٥٣ ـ وحبـذا نفحـاتٌ من يمانيةٍ تأتيك من قبـل الـرّيانِ أحيانا
٥٤ ـ هبتْ شمالاً فذكرى ما ذكرتُكُمُ عنـد الصفـاةِ التـي شرقـيَّ حورانا
٥٥ ـ هل يرجعنّ، وليس الدهر مرتجعاً عيشٌ بهـا طالما احلـولى ومـا لانا
٥٦ ـ أزمان يدعونني الشيطان من غزَلي وكنّ يهويننـي إذ كنـتُ شيطانا
٥٧ ـ من ذا الذي ظل يغلي أن أزوركم أمسى عليه مليكُ النـاسِ غضبانا
٥٨ ـ مـا يدري شعراءُ الناس ويلَهُمُ من صولـة المخـدر العـادي بخفّانا
٥٩ ـ جهلاً تمنى حُدائي من ضلالتِهِم فقـد حدوتُهُـمُ مَثْنـى ووحدانا
٦٠ ـ غادرتُهُم من حسير مات في قرنٍ وآخـرين نسـوا التهـدار خِصيانا
٦١ ـ ما زال حبلي في أعناقهـم مرِساً، حتـى اشـتفيتُ وحتـى دان من دانا
٦٢ـ من يدعُنـي منهـم يبغـي مُحاربتي فاستيقنـنّ أُجِبْهُ غـير وسنانا
٦٣ ـ ما عضّ نابي قوماً أو أقول لهم: إياكم، ثم إياكُمُ، وإيانا
٦٤ ـ إني امرؤ لم أُرد، فيمن أُناوئه، للنـاس ظلماً، ولا للحـرب إدهانا
٦٥ ـ أحمي حمايَ بأعلى المجد منزلتي، من خنـدفٍ والـذُّرى من قيس عيلانا
٦٦ ـ قال الخليفـة، والخنـزير منهزمٌ: ما كنـت أول عبـدٍ محلِـبٍ خانا
٦٧ ـ لاقى الأخيطل بالجولان فاقرة، مثـل اجتـداع القـوافي وبْـرَ هِزّانا
٦٨ ـ يا خُزْرَ تغلِبَ ماذا بالُ نِسوتِكُم لا يستفقْـنَ إلى الـديرينِ تحنانا

---

(٥٤) الصّفاة: الصخرة.

(٥٧) يقول إن ملاك الله يغضب على من كان يغضب لزيارته إياها.

(٥٨) يدري: يخاتل. المخدر: الأسد في عرينه. خفان: مأسدة بطريق الكوفة.

(٥٩) يقول إنه تعرض لأعدائه وتعسف بهم وكانوا يريدون زجره والتعسف به. حدائي: أراد سوقي.

(٦٠) الحسير: المكفوف. يقول إنه خلفهم هالكين بين حسير ومخطىء.

(٦١) المرسى: الحبل الشديد العقدة، دان: خضع وذل.

(٦٦) الخنزير: الأخطل. المحلب: العاق، أو مجلب أي المجلوب كبيراً في العشيرة فلم يعرف الوفاء ويقصد به الأخطل الذي جاء لنصرة الأمويين بالأجر.

(٦٧) الفاقرة: الضربة التي تحطم فقار الظهر. الإجتداع، من جدع أنفه· قطعه. هزان: هو جفنة الهزاني، وكان ممن هاجى جريراً، الجولان: هي حرب الهجاء، الأخيطل: التصغير للتحقير.

٦٩ ـ لما روين على الخنـزير من سكر نادين يا أعظـم القِسِّين جردانا
٧٠ ـ هل تتركن إلى القسين هجرتكم ومسحهـم صلبهـم رحمـن قربانا
٧١ ـ لن تدركوا المجدَ أو تشروا عَبَاءكُمُ بالخـزِّ أو تجعلـوا التنُّـومَ ضمرانا

(٧١) التنوم: نوع من الشجر. الضمران: من الريحان. العباءة: رداء التغلبيين وهو يعيرهم بها أبداً.

جريـــر
(٦٥٣ - ٧٣٣ م/ ٣٣ - ١١٤ هـ)

حياته : ـ

هو أبو حزرة جرير بـن عطيـة بن حذيفة الخطفي بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب اليربوعي التميمي وأمه بنت معيد من بني كليب بن يربوع، كانت ولادته بقرية أثيفية من قرى الوشم في بادية اليمامة نشأ في أسرة فقيرة الحال يرعى إبل قومه، وقد قال الشعر وهو في الحادية عشرة من عمره على شكل أراجيز ومقطوعات ثم ما لبث أن التحـم في التهاجـي مع العـديد من شعراء عصره كالبعيث المجاشعي والفرزدق واستمر في التهاجي معهما سبع سنوات إلى أن انضم الأخطل إليهما بعد أن شهد ابنه مالكاً في جرير أثر عودته من العراق بقوله «وجدت جريراً يغرف من بحر ووجدت الفرزدق ينحت من صخر». فما كان من الأخطل إلا أن قال: الذي يغرف من بحر أشعرهما. غير أنه وبعد فترة وجيزة يقف إلى جانب الفرزدق ضد جرير في حركة التهاجي والنقائض التي استمرت حتى موتهما حيث توفي جرير باليمامة في كنف أميرها عبدالله الكلابي. نشأ جرير كما قلنا في بني كليب ببادية اليمامة ثـم انتقـل بعدها إلى البصرة ليهاجي الفرزدق ويتقرب إلى الـولاة كي ينـال جوائزهـم وتشجعيهم فقد كانت أسرته فقيـرة وشبـه معدمة لا شأن لها في الناس وكثيراً ما كان جرير يضطر للارتضاع من الماشية على مرأى من القوم. وتنقل جرير بين العراق والحجاز في مكة والمدينة والبحرين واليمامة ودمشق والرصافة قاصداً السلاطين والولاة فقد كان شاعراً متكسباً حيث وفـد علـى يزيد بـن معـاوية ومدحه ونال منه أول جائزة ثم وفد على بشـر بن مروان والي الكوفة ثم اتصل

بالحكم بن أيوب عامل الحجاج على البصرة فبعثه هذا إلى الحجاج فأرسله الحجاج إلى عبد الملك كما اتصل بعبد العزيز بن مروان كذلك وفد على عمر بن عبد العزيز والي المدينة وسليمان بن عبد الملك وهشام وغيرهم من خلفاء وولاة الدولة الأموية. غير أن مدحه لعبد الملك بن مروان بقصيدته المشهورة ومطلعها: -

الستم خير من ركب المطايا   واندى العالمين بطون راح

هو ما قربه إلى الخليفة بعد أن كان رافضاً استقباله لميل جرير للزبيريين وخصهم بالمدائح والتعصب لهم فقد انتصر جرير للزبيريين ووقف إلى جانبهم في نزاعهم مع بني أمية حيث نراه يهاجي اليمنيين أنصار بني أمية، وقد تقدم عليه الأخطل في قصيدته التي مطلعها: -

خف القطين فراحوا منك أبو بكروا   وازعجتهم نوى في صرفها غير

والتي أنشدها في حضرة الخليفة عبد الملك.

صفاته وأخلاقه: -

لعل من الأمور التي أثرت في حياة جرير وشعره هي تلك الصفات الخلقية التي كان يتصف بها فقد قال أبو عبيدة في وصفه بأنه كان (قصيراً دميماً) أي قبيحاً وأنه ولد في الشهر السابع قبل تمامة ما جعل الفرزدق يهجوه بقوله «وأنت ابن صغرى لم تتم شهورها» كما كان أبوه أفحج فقيراً وهذا ما جعل جريراً أعق الناس بوالديه كما كان ولده بلال أعق الأبناء له، وهذا ما حمل النقاد على القول بأن تقدم جرير في فن الهجاء وفحشه فيه يعود إلى هذه الصفات مجتمعة، وإلى عقدة النقص في حسبه ونسبه التي عانى منها كثيراً في صغره. فشعره كان أشبه ما يكون بحالة من حالات التعويض. هذا على الرغم مما عرف عن جرير من بعد عن المجون والتهتك والفسوق، فقد كان من أكثر الشعراء حياء. وقد تزوج جرير أكثر من زوجة ذكر بعضها في أشعاره من مثل زوجته أم حكيم من بلاد الري وخالدة بنت سعد بن أوس بن معاوية بن كليب التي أحبها كثيراً ورثاها بأفضل أشعاره وحتى سميت قصيدته

فيها بالجوساء وهي التي يقول فيها والتي سارت على الألسنة:

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولعل خلاصة القول في صفاته وأخلاقه ما قالته فيه سكينة بنت الحسين الشاعرة الناقدة حيث قالت له: «أنت عفيف ضعيف»، وإليك بعض الآراء التي قيلت في جرير والتي تكشف لنا عن شعره وشاعريته:

- قال ابن سلام في طبقاته: وأهل البادية والشعراء بشعر جرير أعجب.

- وقال أبو عبيدة: يحتج من يقدم جرير بأنه كان أكثرهم فنون شعر وأسهلهم ألفاظاً وأقلهم تكلفاً، وأرقهم نسبياً وكان ديناً عفيفاً.

- وقال أبو عبيدة أيضاً: الرواة يفضلون الفرزدق والشعراء يفضلون جريراً.

- ونقل صاحب المحاسن والمساوىء قول الأخطل في جرير: والله كان أسهبنا وأنسبنا وأسبنا.

- ونقل صاحب الأغاني رأي راوية بشار في جرير بقوله:

«اعشى بني قيس أستاذ الشعراء في الجاهلية وجرير أستاذهم في الإسلام» لقد اعتبر جرير وبحق ممثلاً لواقع عصره بكل ما فيه وما ساده من نزاعات قبلية، عمل بنو أمية على اشعالها وحرصوا على استمرارها بين قيسية ويمانية حتى يباعدوا ما بين هؤلاء وبين التفكير في السياسة وحتى يبقى جميع هؤلاء الخصوم في حالة من الضعف والانقسام.

جرير والسياسة: -

لم تكن السياسة لتستحوذ على اهتمام جرير لولا حاجته وفقره وضيق حاله واضطراره لمدح الأمويين لنيل اعطياتهم ولذلك كانت خطوته الأولى إلى هذا الأمر هو اتصاله بالحجاج الذي قربه إليه وجعله شاعره الخاص وجعله شاعر القيسية دون منازع ثم جاءت الخطوة الثانية حيث توسط له الحجاج عند الخليفة عبد الملك بن مروان وبعث معه ولده ليتمكن من

المثول بين يديه وقد حققت له الوساطة كل ما تمناه من المال والأعطيات. ويمكننا بعد هذا القول: بأن جريراً كان في عصبيته تميمياً قيسياً وفي اتصاله بالأمويين نفعياً متكسباً وفي قرارة نفسه زبيري الهوى مضرياً لا يستطيع لهذا الحب إفصاحاً. ولهذا كان مدحه للأمويين متكسباً متزلفاً ومعتذراً عن قومه لميلهم إلى آل الزبير.

جرير وفن الهجاء: -

أما في هجائه فقد كان له مقدرة عظيمة واقتدار متميز على هذا الفن وذلك بما توفر له من شعور حاد وطفولة بائسة ونسب وضيع ولذلك تميز في هجائه بالاقذاع والقوة والمقدرة الفائقة على التهكم والسخرية. فأسلوبه في الهجاء شديد الايلام والتأثير ولا يتورع من استخدام كلمات الفجور والبذاءة وذكر العورات صراحة في هجائه وهو في هذا الفن يستغل سيرة المهجو وحياته وذويه وأقاربه كي يسقط ويذل مهجوه ويجعله مضرب المثل بين الناس في الهزء والسخرية. وهذا واضح في هجائه للفرزدق حيث تتبع حياته وعيّره بجده كما اتهمه في دينه وعقيدته. أما هجاؤه للأخطل فأمر من ذلك وأفحش وأقسى ذلك أن الأخطل تغلبي نصراني ولذلك كان يرى أن كل تغلبي عبد لا يصل إلى مستوى الأحرار كما نراه يطعن في دينه ويعيره بأكل الخنزير وشرب الخمر.

وبالإجمال فقد كان هجاء جرير كالسيل الجارف والسهام النافذة والسيوف القاطعة لا يجد المهجو أمامها سبيلاً إلا الهرب والفرار وقد كان هجاؤه ردوداً سريعة وحججاً قوية دامغة تختلط فيها الحقائق مع الاختلاقات المؤلمة الموجعة. فها هو يهجو الأخطل ويفخر بإسلامه الذي نزل في مضر حيث يقول:

إن الذي حرم المكارم تغلباً   جعل الخلافة والنبوة فينا

ويكفي أن تنظر في هجائه لبني نمير لتعرف مدى قوة هجائه ومرارته وقد علق ابن رشيق على هجائه بقوله (وممن وضعه الشعر. . بنو نمير وكانوا

جمرة من جمرات العرب . . .) وقصيدته التي هجا فيها بني نمير سميت فيما بعد بأسماء عديدة منها الفاضحة ، الدماغة ، الدهقانة ، المنصورة ، الدامغة . وحتى أن ابن سلام يذكر أن شاعر بني نمير الراعي قد توفي في العام الذي قيلت فيه من شدة الحزن والألم ومنها الأبيات المشهورة التي سارت كالأمثال قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
فغض الطرف أنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

جرير والغزل : -

جرير شاعر وجداني مطبوع يجمع بين وضوح المعاني وفصاحة الألفاظ ومتانة التركيب وعذوبة السبك وشعره كثير السيرورة شديد العلوق بالذاكرة مطاوع للغناء فقد تميز في غزله بصدق العاطفة ومزجه بين أسلوب الجاهليين وأسلوب العذريين فهو يصف المرأة كما وصفها سابقوه من الشعراء ولكنه يعود إلى نفسه ليبين لنا ما يلاقيه من ألم الفراق وشدة الشوق وما يتبع ذلك من الشكوى والحرمان وهو في كل ذلك يعبر عن نفسيته تعبيراً ليناً دقيقاً وصافياً يزخر بالموسيقى العذبة التي يختار لها ما يناسبها من الألفاظ والقوافي والبحور ويخلو من كل ما عهدناه في شعره من فحش وبذاءة . وبالإجمال فإن غزل جرير عاطفة ذائبة منسابة كالماء الرقراق العذب في موسيقاها ومعناها وعليه فليس من الغريب قول النقاد بأن أغزل بيت قالته العرب هو قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

بعد كل ذلك يمكننا القول أن الهجاء عند جرير كان تعبيراً عن حالة القنوط والغزل تعبيراً عن حالة الرجاء .

الأفكار الرئيسية في النص

١ ـ من البيت : ١ ـ ١٧ مقدمة على عادة شعراء الجاهلية يتحدث فيها عن ارتحال الأحبة وما تركه رحيل محبوبته «طيبة» في نفسه من الألم والشوق والعذاب .

٢ ـ من البيت : ١٨ ـ ٢٨ يتغزل الشاعر فيها بأم عمرو ويتحدث عن غدرها وخيانتها وعن بخلها معه . كما أنه يتذكر أيامه معها وما أحدثه رحيلها في نفسه .

٣ ـ من البيت : ٢٩ ـ ٥٧ يتغزل بمحبوبته أم عثمان ويقول أغزل بيت قالته العرب ، ويتذكر أيامه معها وما أحدثه الفراق في نفسه من ألم ومشقة .

٤ ـ من البيت : ٥٨ ـ ٧١ يخصص هذه الأبيات للاعتزاز بنفسه وقبيلته وهجاء الأخطل وقبيلته تغلب هجاء مرأ مقذعاً يعرض فيها بأعراضهم وشرفهم ويصفهم بالخنازير.

الشرح الأدبي

١ ـ أقرانا: يقال قرن الحبل إذا عقله مع غيره (أقرانه).

طوعت: اخترت.

يقول الشاعر: لقد فارقني الأحبة وابتعدوا عني، وانقطعت حبال الود بيني وبينهم، وكل ذلك دون علمي واختياري بل رغماً عني.

٢ ـ يقول: الآن وبعد رحيل الأحبة عن الديار لم يبق لنا إلا أن نقف على آثارهم ونتذكر أيامهم فلا يمكن أن نستبدل ديار الأحبة أو الجيران فهؤلاء يذكروننا بالأحبة الراحلين.

٣ ـ الأثعان والاظعان: هم الأحبة الراحلون، مروعاً: فزعاً خائفاً، البين: الفراق، محزاناً: على وزن مفعال وهي صيغة مبالغة أي شديد الحزن.

يقول: لقد سرت وراء الأحبة الراحلين أقتفي أثرهم وكلي اضطراب وحزن وخوف من هذا الفراق والبعد الذي جعلني شديد الحزن ودائم اللوعة.

٤ ـ نعيت والنعي: هو نقل خبر الوفاة، المكائب: الحزين يقول بأن الأحبة قد حزنوا كثيراً لحالي هذا بينما الشامتين والحاسدين فرحوا كثيراً لألمي وحرقتي وتمنوا موتي بعد هذا الفراق...

٥ ـ أويت لنا: ملت إلينا، ذي العرش: الله عز وجل يخاطب الشاعر

محبوبته قائلاً أنك لو تعرفين ما أقاسيه وأعانيه من هذا الفراق لملت إلينا واقتربت منا وسمعت شكوانا الذي لا أجد إلا الله تعالى أبثه إياها علّه يساعدني ويخرجني من الحالة هذه التي انتهيت إليها.

٦ ـ إن دعائي واستجارتي بالله تعالى تجعلني كصاحب السفينة في البحر وقد هبت عليه العاصفة فليس له إلا الله يستغيث به ويستنجده كي يخرجه وسفينته سالماً من البحر وحالي مع الحبيبة كحال البحار مع السفينة والبحر.

٧ ـ الحملان: الهدايا والأعطيات.

يخاطب الشاعر محبوبته على عادة شعراء الجاهلية قائلاً: أيها الراكب الذي يسوق إبله أمامه ويتجه إلى ديار الحبيبة بلغ تحياتنا وأشواقنا إليها مع تمنياتنا لك بأن تنال الهدايا والأعطيات الجزيلة.

٨ ـ القلائص: النوق القوية، يرجو الشاعر ذلك الراكب أن يبلغ رسالة العشق والحب إلى الحبيبة وهي رسائل خفيفة تستطيع الإبل أن تحملها لأنها لا تحمل في بطونها شيئاً فهي إبل قوية ونشيطة في سيرها ستصل إلى ديار الحبيبة بسرعة.

٩ ـ إن تبليغك وإيصالك لهذه الأمانة ولهذه الرسائل إلى الحبيبة تدل وتثبت أنك الرجل الأمين الذي يعتمد عليه ويضرب المثل بأمانته خاصة في هذا الوقت الذي قل فيه الأوفياء وكثر الشامتون.

١٠ ـ الغور: الأرض المنخفضة (الغور وملح موضعان) يقول الشاعر مخاطباً الراكب بلغ سلامنا لأهل الغور القاطنين بالقرب من ماء ملح وقد اصبحوا بعيدين عني ومن الصعب أن اراهم أو التقي بهم بعد اليوم.

١١ ـ يتشوق الشاعر في هذا البيت إلى المكان الذي نزلت به الحبيبة وأهلها كما أنه يهوى نبات الطلح ومرابض إبل الحبيبة فهو يهوى كل ما يتصل بالحبيبة (منازلها، إبلها وما ترعاه هذه الإبل).

١٢ ـ يتمنى الشاعر في هذا البيت أن يجد من الأصدقاء أو الأصحاب

من ينسيه همومه ويخفف عنه شدة اشتياقه، ويتمنى أن يجد من يُسقيه ذلك الشراب الذي ينسيه همومه ويخفف من شدة وجده وهيامه.

١٣ ـ ونتيجة لعدم وجود من يخفف عنه من صديق أو من شراب نراه يتمنى أن ما بينه وبينها لم يكن أو أنها لم تسمح له بالاستمرار في هذا الحب وصدته لكي لا يقع فيما وقع فيه الآن ولم يتعلق بها هذا التعلق.

١٤ ـ ثم يردف قائلاً لماذا لم تتجنبي حبي ما دمت على علم بهذا الفراق، ولكن يعود ليتغزل بها ويصفها وثيابها بالرائحة الزكية.

١٥ ـ ألمّ بنا: التقى بنا: يقول الشاعر أن حبيبته قد طلبت اللقاء معه قبيل رحيلها كي تودعه قائلة له لا أظن أنك ستلقاني بعد اليوم.

١٦ ـ في هذا البيت يسأل الشاعر محبوبته (طيبة) أن تمتعه بلقائها والحديث معها قبل رحيلها معتبراً نفسه ضيفاً وللضيف واجب لا بد من تحقيقه ولذلك يوجب على محبوبته «طيبة» أن تمتعه بلقاء أو حديث أو بأي شيء تجود به نفسها.

١٧ ـ غدوات: من الغد وهو السفر مبكراً، البين: الفراق، يواسي الشاعر نفسه قائلاً بأنك لم تكن أول عاشق فارقته الحبيبة فأصابه الوجد والشوق بسبب هذا الفراق المبكر.

١٨ ـ يناشد الشاعر محبوبته أم عمرو «يقال بأنها طيبة المذكورة سابقاً» يناشدها ويتوسل إليها أن تعيد إليه قلبه كما كان قبل الفراق، فهو يعتبرها سالبة لقلبه وعقله طالباً لها المغفرة من الله سبحانه وتعالى على فعلها ذلك.

١٩ ـ رغم ما يلاقيه من محبوبته نراه هنا يتشبب بها ويتغزل بجمالها فيصفها بأنها من أجمل النساء وأملحهن ولكنه مع ذلك يذكرها بأن جميع الناس سواء رغم هذا التفاوت في الجمال والملاحة والحسن وبذلك عليها أن ترحمه وتتصدق عليه بلقائها أو حديث يشفي غليله ويقلل من هيامه واشتياقه.

٢٠ ـ لا زال الشاعر يصف محبوبته (أم عمرو) بالتمنع عليه فكلما

تقرب منها ابتعدت عنه وكلما أجزل لها العطاء كانت بخيلة معه وهكذا محبوبته تعذبه في حبها ويشقى هو من أجل هذا الحب وكأنها تستعذب عذابه وشقاءه.

٢١ - ونتيجة لهذا الغدر وعدم الوفاء من جانب محبوبته يحذر الشاعر نفسه وغيره من العشاق غدر الأصدقاء والأحبة فغدرهن متلون متغير لا يثبت على حال فهو أصناف متعددة ومختلفة.

٢٢ - يقول مخاطباً محبوبته أم عمرو: لقد خنت الإنسان الذي أحبك واخلص لك حتى أنه استبعد أن تخونيه ولكن لا عجب في ذلك فلست الأولى التي لم تف بعهودها ووعودها.

٢٣ - تهيمني الحب: كاد يذهب بعقلي، يقول لقد حاولت جاهداً إخفاء حبي لك حتى كدت أفقد عقلي من شدة الحب والكتمان حيث لا استطيع كتمان حبك فهو يفضحني دائماً.

٢٤ - كما أني لا يمكن أن انسى حبك وهواك الذي كاد أن يقتلني أيام لقائنا وصفائنا في سلمانين وبيدان فإن حبك سيبقى يطاردني حتى يهلكني أو التقي بك في مرة أخرى ونعيد ذكرياتنا الحلوة على ماء بيدان - ماء لبني جعفر -.

٢٥ - كما أنني لن أنسى ما كان سيفعله حبك بي يوم لقائنا بموضع لوي حواء حيث كدت يومها أقتل وأموت وأُصاب بقروح الحب وتباريح النفس عندما سمعت بقرب الارتحال والفراق.

٢٦ - يقول بأنه كان مطمئناً إلى وفائها وحبها له حتى ما كان منها من الفراق والصد والهجران.

٢٧ - إن للحب منزلة كبيرة وعظيمة في نفسي ولذلك وبسبب حبي الخالص لكم ووفائي لحبكم فأنني أحب أهلك وأقاربك من أجلك وأجل حبنا أذا بادلونا هؤلاء حباً بحب ووداً بود.

٢٨ ـ يقول: بأنه لا خير في هذه الدنيا ولا في هذه الحياة إذا افترقنا عن بعضنا البعض وانقطع التواصل فيما بيننا.

٢٩ ـ يقول مخاطباً محبوبته «أم عثمان» قائلاً لها: إن الحب الذي يحصل دون قصد وعن غير عمد يحدث أثراً كبيراً في النفس فيجعل الرجل الحليم والوقور رجلاً متصابياً يتصرف كالصبية كما أنه يدفع المحب إلى البكاء في بعض الأحيان مثل الفراق والهجر والصد من جانبك.

٣٠ ـ ضنت: بخلت يقول بأن محبوبته قد بخلت عليه بحبها الذي كان كالماء العذب الرقراق يرده كل حين ويشفي غليله منه فيطفىء ظمأه منه ولكنها اليوم بخلت عليه وصدته وهجرته فأصبح عطشاناً هائم القلب والفؤاد.

٣١ ـ القيظ: شدة الحر وهو وقت الظهيرة يقول كيف لي أن القاك واجتمع بك وأشفي الفؤاد مما فيه وقد أصبح لقاؤنا في أوقات الظهيرة ـ حيث وقت القيلولة ـ متعذراً لبعد ديارك عني كما أن باديتك ليست باديتنا أو قريبة منا «كان يلتقي بها قبل الرحيل في أوقات القيلولة حيث لا يراهم أحد».

٣٢ ـ بعد أن تشوق الشاعر إلى محبوبته ويئس من لقائها أو الاجتماع بها مرة أخرى بعد رحيلها وبُعدها عن مضارب قومه نراه يتشوق إلى الديار والمنازل التي كانت تحل بها وقومها وهي وادي العرق ووادي السلان وهنا يظهر أن محبوبته من بني تميم قومه. فيكون هذا التغزل والتشوق في بني تميم فهو يفخر بقومه من جهة أخرى.

٣٣ ـ ٣٤ ـ يقول ما الذي جرى للدهر وماذا حصل لهذا الزمان حتى قطعت حبل الوصال بيننا ونسيت ذكرياتنا وكأنه لم يحصل بيننا شيء فلماذا هذا البعد والصد والهجران فهل تبدل الليل بغيره؟ وهل اختلف الزمن فماذا حصل؟؟ وكان نجوم الليل لا تتحرك من مكانها «كناية عن طول ليله وحيرته» فهي حيرانة لا تجاوز مكانها وكأنه لا يوجد صباح بعد هذا الليل الطويل، فليالي العاشقين طويلة ومملة كما قال المتنبي «طوال وليل العاشقين طويل».

٣٥ ـ يقول: إن أي إنسان مقيم بالغور لو شهد ما عانيته وما فعلته

الحبيبة بي من الصد والهجر والارتحال لَصُعب عليه ذلك ولطلب إلى الحبيبة أن تكف عن صدها وهجرانها كي ترحم ذلك المسكين.

٣٦ ـ الحَـوَر: شدة بياض العين وشـدة اسـوداد سوادهـا يحيين: فعل مضارع مبني على السكون في محل جزم، ونون النسوة: فاعل يتغزل الشاعر بعيون حبيبته وهي على ما يبدو تميمية ـ فيصف عيونها بالحور فإذا ما نظر إليها الإنسان يهيم بها من أول نظرة ويتعلق بها حتى تقتله وهذا ما حدث لجرير فقد تعلق بها وهام بها ولكنها لم تبادله الحب بل صدته وهجرته فلم تبعث فيه الحياة من جديد بل أبقته ميتاً.

٣٧ ـ فبالرغم من أن هذه العيون من أضعف ما خلق الله في الإنسان إلا أن تأثيرها فيه عظيم وكبير حيث يقع في جمالها أحلم الناس وأعقلهم حتى لا ترى فيهم حراكاً من شدة الوجد والشوق والهيام.

٣٨ ـ يقول: إن من يحسدني في حبكم لو كان مكاني في طلبكم وحبكم للاقى ما لاقيت من الهجر والصد والمباعدة ولعذرني في هذا الحب ولم يغبطني فيه لأنه حب يجر الألم والعذاب على صاحبه.

٣٩ ـ ألدن والدين: بمعنى العادة: يقول الشاعر أن من عادة عيون الحبيبة القتل والسبي للحبيب ولذلك لا غبطة ولا حسد أو تنافس في هذا الحب القاتل الذي يترك الحبيب العاشق ولْهاناً هائماً دون حياة أو حراك.

٤٠ ـ لقد طار فؤادي، وانخلع من صدري عندما جاء طيفها وزارني ليلاً في الحلم وقد كانت الحبيبة كما عهدتها من قبل طيبة الرائحة ممتلئة لا ضعف فيها ولا مرض.

٤١ ـ ويستمر في وصف الحبيبة وريقها الذي يشبهّه بالثلج الذي سقط على قلبه المحروق المعذب فأعاد إليه الحياة من جديد وقد ظهرت له في النوم وقد وضعت ورفعت الغطاء عن وجهها ورأسها وفمها فظهرت ضفائرها وذوائبها الطويلة الجميلة وشم رائحة فمها وهي تستاك المسك والبان فهي طيبة لا تأكل إلا طيباً.

٤٢ ـ ٤٣ ـ تستأف: تمضغ، الضجيع: الليل أو النوم، الرؤيا: الحلم، يقول بأن محبوبته كانت تمضغ المسك والبان والعنبر الهندي وتحادث حبيبها لتبعث عنه الهم والحزن والملل، الذي كا يعاني منه الشاعر نتيجة لطول الليل ولذلك عاش الشاعر في حلمه هذا ليلة من أحلى الليالي التي أعادت إليه ذكريات الحبيبة الحلوة فكانت دنياه في ذلك الحلم أجمل الدنى لقد بتنا تلك الليلة وكأننا نملك بعضنا البعض وكأن جميع الهموم والآلام قد انتهت دفعة واحدة فليت الحبيبة قد حولت هذا الحلم إلى حقيقة واجتمعت بنا حقيقة لا حلماً وانهت ما أعانيه من ألم البعد والهجران.

٤٤ ـ لقد قالت له أم عثمان بعد أن قص عليها حلمه هذا، ليس لك يا جرير من عزاء إلا هذا الحلم ذلك أن أهل الحبيبة قد حالوا بينك وبين زيارتها بأن وضعوا الحراس والأبواب الموصدة تحول بينك وبين أي زيارة قد تقوم بها.

٤٥ ـ لما تحققت من عدم لقائي بالحبيبة وأنه لا أمل يرجى بعد هذا الرحيل بدأ شبح الموت يلاحقني باستمرار ولذلك كان رحيلها كالكابوس الدائم بالنسبة للشاعر.

٤٦ ـ الأظعان: الراحلين، يوم منى: اسم يوم للعرب، يقول الشاعر في ذلك اليوم وهو يوم منى عندما رأيت الراحلين وما بهم من سحر وجمال وقد عرفتني بأنني إنسان مهموم فارقه الحبيب وقد ظهر أثر الهجر والفراق على وجهي مما جعلني معروفاً للراحلين استحق منهم الشفقة والمساعدة.

٤٧ ـ لقد مضت قافلة الراحلين وأنا أنظر إليهم بحزن وأسى عميقين مما جعل بؤبؤ عيني غارقاً في الدموع من شدة البكاء حتى تخيلت أن بؤبؤ عيني سينفصل عنها من كثرة البكاء.

٤٨ ـ أحداجهم: هواد جهم، تحدي: تسير مسرعة، مقفية: متجهة وراء بعضها بعضاً.

يصف الشاعر هنا قافلة الراحلين وهوادج أهلها بأنها تشبه في سيرها

وراء بعضها بعضاً نخل ملهم وقران (موضعان).

٤٩ ـ يخاطب أم عثمان قائلاً: أن ما تلقاه رواحلنا ومطايانا من التعب كبير جداً فنحن لا نتوقف عن المسير لا في الصباح ولا في المساء.

٥٠ ـ تخذي: تسير، النجب: النوق القوية، المناسم، السنام، الحزابي: ناقل الماء، الحزان: الأرض الوعرة.

يقول: بأن هذه النوق القوية تسير بنا مسرعة في تلك الأراضي الوعرة الصعبة الأمر الذي جعل سنامها ينزف دماً فهي تشبه ناقل الماء في الأراضي الوعرة الذي يسرع ليوصل الماء لأهله كي ينقذهم من العطش الشديد، والنوق كذلك فهي تسرع لتصل الراحلين وتنهي رحلتهم الشاقة هذه.

٥١ ـ يقول: بأن تلك النوق القوية تسير بسرعة وقوة وتتجه نحو أراضي نجد مارة عبر مناطق السلوطح والروحان مستعينة في معرفة الطريق والاهتداء بها بالإعلام والإشارات المزروعة على الطريق لإرشاد القوافل والراحلين.

٥٢ ـ ٥٣ ـ وفي أثناء مسير النوق وما يعتريها من التعب والمشقة هبت النسائم اليمانية على الراحلين قادمة من جبل الريان فانعشت في المسافرين الأمل وبعثت فيهم العزيمة وجددت قوتهم وتصميمهم على الوصول وقد ذكرته تلك النسائم اليمانية المنعشة بساكني تلك الديار وبخاصة سكان جبل الريان فيمتدحهم ويثني عليهم الثناء كله بما يتمتعون به من كرم وطيب نفس وجمال ديار وطبيعة «يظهر الشاعر هنا تقربة وتزلفه للأمويين لكسب رضاهم وطمعاً في عطاياهم فهو يشيد باليمنيين أنصار بني أمية».

٥٤ ـ ٥٦ ـ إن تلك النسائم التي هبت على القافلة وهي عند الصخرة شرقي حوران قد ذكرتني بالأحبة هناك فتمنيت أن ترجع تلك الأيام الحلوة الهانئة، ويعود الحب والود بيننا، وتعود حياة الرغد والاطمئنان التي كنا نعيشها ونحياها معاً في تلك الديار حيث أيام الصبا وقد كنت شاباً غزلاً تتقرب

إلي النساء ويهوين محادثتي ومجالستي ويلقبنني بالشيطان لذكائي وحلاوة غزلي ورقة نسيبي.

٥٧ ـ من هذا البيت بدأ الشاعر بالتخلص والانتقال من موضوع الغزل إلى موضوع هجائه للأخطل وهذا ما يسمى بحسن التخلص والذي يعد تمهيداً ومقدمة مناسبة للانتقال للموضوع الرئيسي في القصيدة وهو الهجاء فهو يقول: إن من يغلي ويمتلىء غيظاً وحقداً على زيارتي لكم أطلب من الله تعالى أن يلعنه ويغضب عليه (يغلي: يشتد غضبه وغيظه).

٥٨ ـ يدري: يحاول أن يمسكه على غفله، الصولة: الهجمة والوثبة والقوة العادي: الأسد أو العدو أو الظالم.

يقول أن أمل الشعراء في النيل مني بهجائهم ما هو إلا كأمل الناس في صيد الأسد الساكن في عرينه حيث يكون شديد السطوة والقوة والصولة «وهذه إشارة إلى محاولات الأخطل للنيل منه بواسطة الهجاء».

٥٩ ـ الحداء: السوق والغلبة يقول: كان كل واحد من هؤلاء الشعراء يظن أن بإمكانه أن يسوقني ويغلبني في هجائه ولكنهم فوجئوا عندما تغلبت عليهم أفراداً وجماعات «في هذا إشارة إلى وقوف الأخطل إلى جانب الفرزدق ومحاولتهم النيل منه»

٦٠ ـ الحسير: التعب من كثرة الجرى وهو الميت من الحسرة، القرن: القيد وهو قيد الذل نتيجة هجائه من قبل جرير، التهدار: صوت الثور أو البعير، الخصيانا: العبد الخصي: يستكمل الشاعر حديثه قائلاً بعد أن غلبتهم وانتصرت عليهم تركتهم ورائي بين شاعر مات من شدة الغيظ والحسرة نتيجة الهزيمة، وآخر ترك الشعر وقوله نهائياً وعزف عن قوله بعد ما فضحته وشهرت به بين الشعراء.

٦١ ـ يقول الشاعر عن الذين هاجوه بأنه لا زال منتصراً عليهم يذلهم كل حين، فصدر البيت كناية عن ذلهم وخضوعهم له وأنه هجاهم هجاء مراً

حتى أشفى غليله منهم وحتى دان وخضع له قسم منهم ، أما القسم الآخر فلا زال يخاصمه ويهاجيه .

٦٢ ـ وسنان : نائم ، يقول إنه لم يدعني أحد للنزال والمهاجاة إلا وأجبته بسرعة دون تردد فأنا لا أنام على ضيم أو أسكت على إهانة ولذلك أجيبه إلى طلبه وأسكته وأخرس لسانه كل ذلك وأنا بين النوم والصحوة ودون استعداد تام فكيف إذا كنت في تمام صحوتي ونشاطي أو أن هؤلاء لا يستحقون مني الاستعداد فهم ضعفاء لا يقوون على منازلتي .

٦٣ ـ هذا البيت تحذير من الشاعر إلى خصومه بعدم التقرب منه أو من عشيرته فهو لم يتعرض لأحد منهم دون سبب أو مبرر فباعه في الهجاء طويل وإذا عض أحداً أو هجاه فإنما يكون بذلك قد أماته وقضى عليه نهائياً .

٦٤ ـ أناوئه : أعاديه وأخاصمه ، الأدهان : التصنع والمداراة ويضيف الشاعر قائلاً :

إنني لا أرغب في ظلم أحد كما أنني لا أستطيع أن أسكت عمن يريد أن يظلمني ، فأنا أمرؤ لا أحب الرياء أو المداراة في الحرب أو الخصومة .

٦٥ ـ أحمي حماي : أدافع عن نفسي وعشيرتي ونسبي ، خندف : عشيرة أمه ، الذرى : الذروة والمقصود نسبه من جهة أبيه .

قيس عيلان : من اسمى عرب الشمال من تميم إحدى أعظم قبائل قيس . يعتز الشاعر هنا بنفسه ونسبه ويفتخر بهما فهو من جهة أبيه وأمه من أعلى نسب وأرفع مكانه .

٦٦ ـ يقول الشاعر : عندما سمع الخليفة الأموي في دمشق عبد الملك بن مروان بهجائي للأخطل وهزيمته أمامي قال له : لم تكن يا أخطل أول عبد عق سيده وخانه «هنا إشارة إلى أن الأخطل كان في خدمة الأمويين وليس له في نسبه فضل في الإسلام» .

٦٧ ـ لقد لاقى الأخطل الحقير من هجائي هذا ما قطع ظهره وأسكت

لسانه تماماً كما حصل ذلك مع جفنه الهزاني من قبل حيث قطعته قوافي جرير وهجاؤه له قطعاً لم يقم ولم يقو على الهجاء بعدها أبداً.

٦٨ ـ خزر: أي بني تغلب والمقصود النساء التغلبيات المميزات بالعيون الصغيرة، لا يستفقن: من شدة السكر والشراب لا يستيقظن.

يعيّر الشاعر بني تغلب بنسائهم ذوات العيون الصغيرة بينما عيون التميميات كما وصفها من قبل رمز الجمال والكمال، كما يعير التغلبيات بشربهن للخمر وهذا يجعلهن دائماً سكارى لا يذهبن إلى الدير الذي يتشوقن لزيارته دائماً لما فيه من قسيسين وخمر وشراب كثير.

٦٩ ـ يستطرد الشاعر قائلاً في التغلبيات: عندما تجدن الرجال قد سكروا من كثرة الشراب تفزعن إلى رجال الدير طالبات منهم كل عمل دنيء وخسيس فالى متى ستتركون يا بني تغلب نساءكم هكذا دون قيد أوحياء.

٧٠ ـ ومتى تتركون هذه الزيارة اليومية إلى القسس وتتوقفون عن التمسح بالصلبان وتقديم القرابين إلى الدير والقسيسين.

٧١ ـ تشروا: تبيعوا، يقول الشاعر مخاطباً الأخطل والتغلبيين عامة بأنه لا يمكن لكم أن ترتفعوا وترتقوا إلى المستوى الرفيع الذي بلغه بنو تميم حتى لو بعتم عباءاتكم الخشنة الغليظة واستبدلتموها بالخز والحرير أو حتى لو حولتم شجر التنوم وأصبح ريحاناً. فهو يشير هنا إلى استحالة بلوغ الأخطل وقومه مبلغ جرير وقومه وهذا يدل على فخره بنسبه العربي الإسلامي بينما الأخطل نصراني لا يرقى إلى مستواه مهما تزلف وتقرب إلى خلفاء الدولة الأموية.

الدراسة الفنية

١ ـ استهل جرير قصيدته استهلالاً تقليدياً على عادة شعراء الجاهلية، حيث الوقوف على إطلال الحبيبة وذكر ما بينهما ووصف رحيلها ثم التشوق والحرقة والألم ووصف ذلك كله بأسلوب يفيض رقة وعذوبة يدفع السامع أو القارىء إلى مشاركة الشاعر أحزانه وآلامه والشعور معه في مصيبته تلك. وبعد أن يطمئن الشاعر إلى استمالة السامع إلى جانبه نراه يرحل على ناقته قاطعاً الفيافي والقفار متحملاً الصعاب والمشاق حتى يصل إلى محبوبته وهو في أثناء تلك الرحلة يصف لنا ناقته (قوتها وسرعتها) وما يعانيه في سفره هذا ثم بعد ذلك ينتقل الشاعر إلى الغرض الرئيسي من قصيدته وقد كان عند شاعرنا جرير الهجاء للأخطل، هذا هو النهج العام للقصيدة الجاهلية وهو النهج نفسه الذي اتبعه جرير في هجائه للأخطل التغلبي[1].

٢ ـ تميز أسلوب جرير في قصيدته هذه وغيرها من القصائد بالقوة والمتانة فهو يبتعد عن كل ما يضعف أسلوبه من مثل، الحشو أو التقديم والتأخير أو التكرار للألفاظ والمعاني، بل على العكس من ذلك نرى جريراً قد وفر لقصيدته هذه جميع عناصر القوة اللازمة من الألفاظ العربية الفصيحة

(١) الأخطل: ـ هو غياث بن غوث من بني جشم أحد فروع تغلب ولد على الأرجح سنة «٢٠ هجري» بالحيرة، وقد لقبه كعب بن جعيل بالأخطل ومعناه السفيه لما رأى فيه من كثرة الشر والتعرض لأعراض الناس، كما لقبته زوجة أبيه ب دوبل) وهو الحمار الصغير وقد كان شاعر بني أمية وسفير تغلب عندهم.

البعيدة عن أي ضعف، وكذلك استخدامه للجمل الفعلية بكثرة والتناسب بين موضوعي الغزل والهجاء وكذلك حسن التخلص والانتقال من موضوع إلى آخر دون أن يشعرك بالشذوذ أو التغير والاختلاف.

٣ ـ قلنا أن أسلوب الشاعر تميز بالقوة ومتانة التركيب وذلك لأنه راعي القاعدة البلاغية القائلة (بأن لكل مقام مقال) حيث رأيناه في القسم الغزلي من قصيدته يستعمل الألفاظ والمعاني والصور المناسبة لموضوع الغزل فالألفاظ رقيقة سهلة وعذبة تتدفق منها العذوبة وتنساب إلى النفس انسياباً رقيقاً خفيفاً سهلاً، أما في القسم الثاني من قصيدته وهو في الهجاء فقد جاءت الألفاظ قوية عليها طابع الصعوبة والخشونة وذلك كي تعكس لنا جو الهجاء والغضب الذي يعتمل في صدر جرير. وكذلك نراه يراعي في هذا السبيل أيضاً اختياره للحروف حيث اعتمد حروف القوة والشدة في القسم الثاني منها وهي حروف «قطب جد» وقد أكسبه كل هذا الاختيار الموفق والمراعاة الدقيقة لمقتضى الحال، قوة في الأسلوب ومتانة في التركيب وجودة في الصياغة لا يبلغها إلا الفحول من الشعراء. وليس ذلك مما يعجز عنه جرير بل أنه كان قد وصف وشهد له بأنه الشاعر الذي (يغرف من بحر) وهو بحر الألفاظ والمعاني الزاخر. ولعل نشأته في بادية اليمامة قد أكسبته علماً غزيراً في الفصاحة والبيان وأطلعته على فصيح اللغة والألفاظ فنراه يجود في هذا الميدان أكثر من غيره.

٤ ـ لقد وفق جرير إلى حد بعيد في اختيار موسيقاه الشعرية عندما استعمل تفعيلات البحر البسيط وكذلك ألف الإطلاق في رويه فقد عبرت هذه القافية عن النفس الغنائية للشاعر وأكسبت شعره نوعاً من السيرورة وسهولة الحفظ والدوران على السنة الناس وتلك خاصية لم تتوفر لكل شاعر إلا لمن ملك ناصية القول والنظم واللغة، كما أن هذه الموسيقى قد أكسبت شعره انسجاماً وتوازناً انعكس أثره على القصيدة وأجوائها فهي كالنهر العذب الرقراق تنساب بهدوء وسهولة تكتنفها الثورة والارتفاع خاصة في قسم الهجاء منها.

٥ ـ اتبع جرير في هجائه أسلوب التهكم والسخرية من مهجوه فقد كان لا يتورع عن استخدام الألفاظ البذيئة وذكر العورات بأسمائها دون وازع من خلق ، كما كان يدرس سيرة المهجو فيعرف نسبه وأصله وعشيرته وما فيه من سقطات وعيوب ليستغلها في هجائه له ، ولذلك كان هجاؤه مدروساً يصدر عن وعي وعمق وهذا ما جعله شديد الأيلام والتأثير في المهجو.

ولعل شدة هجائه جاءته من المنابع التالية :

أ ـ من نشأته البدوية باليمامة بشكل خاص وبيئة العراق بيئة التهاجي بشكل عام مما أكسبه خشونة في الطبع وقوة في الهجاء وسلاطه في اللسان .

ب ـ من عقدة النقص التي كان يعاني منها في صغره حيث أسرته الفقيرة مما جعله يرعى لقومه أبلهم في صغره وهذا انعكس في كبره حقداً وغضباً أفرغه في هجائه وأشعاره .

ج ـ من العيوب الخلقية التي لازمته صغيراً وكبيراً فهذه ظاهرة للعيان وكأنها في نظره وصمة عار لا يستطيع إخفاءها أو الدفاع عنها فقد كان كما سبق وتحدثنا قصيراً دميماً وكذلك مولده قبل تمامه ، بالإضافة إلى كون أبيه أفحج قصيراً وفقيراً ، كل هذه العوامل مجتمعة شكلت لنا شخصية جرير فجاء هجاؤه لاذعاً ساخراً ، وعودة سريعة إلى الأراء التي قيلت فيه تؤكد ما ذهبنا إليه .

٦ ـ وجرير في غزله يسهب حتى يشعرك أنك أمام بحر زاخر من المعاني والألفاظ العذبة الرقيقة التي تصلح للغناء أكثر من أي شيء آخر ، وقد جمع في غزله كما قلنا سابقاً بين غزل الجاهليين وغزل العذريين ويكفي أن ترجع إلى أراء النقاد في غزله لتتعرف إلى ما كان يتميز به على غيره من الفحول فأبو عبيدة ينقل رأي المقدمين لجرير في فن الغزل بحجة أنه أرقهم نسيباً وأسهلهم ألفاظاً ، كما أنه يضرب المثل به في النسيب . . . إلخ .

ويكفي أن تعرف أن أغزل بيت قالته العرب هو لجرير وهو قوله (إن العيون . . . لتعرف مكانة جرير من فن الغزل والنسيب والتشبيب) .

المصادر والمراجع

١ ـ الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني علي بن الحسين بن محمد القرشي، بيروت: دار التوجيه اللبناني.
٢ ـ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤.
٣ ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
٤ ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، شكري فيصل، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٩.
٥ ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثانية.
٦ ـ جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت، القاهرة: مكتبة البابي الحلبي.
٧ ـ ديوان جرير، بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٤.
٨ ـ ديوان حسان بن ثابت، ضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقي، بيروت: دار الأندلس.
٩ ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: المطبعة التجارية الكبرى.
١٠ ـ السيرة النبوية، ابن هشام، تحق: مصطفى السقا وزميله، بيروت: دار أحياء التراث العربي.

١١ ـ شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، جبرائيل جبور، بيروت.
١٢ ـ شعراء الدولتين الأموية، والعباسية، حسين عطوان، بيروت: دار الجيل، الطبعة الثانية ١٩٨١.
١٣ ـ الشعر والشعراء، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) تحق: مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.
١٤ ـ صفوت التفاسير، محمد علي الصابوني، بيروت: دار القرآن الكريم، الطبعة الرابعة، ١٩٨١.
١٥ ـ العصر الإسلامي، شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الرابعة.
١٦ ـ الفاروق عمر، محمد حسين هيكل، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الخامسة.
١٧ ـ في الشعر الإسلامي والأموي، عبد القادر القط، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٩.
١٨ ـ مختارات من النصوص الأدبية، معاذ السرطاوي ورفيقه، عمان: مكتبة الشباب ومطبعتها، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.
١٩ ـ مصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين الأسد، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٨.
٢٠ ـ المفضليات، تحق: عبد السلام هارون ورفيقه، القاهرة: دار المعارف.
٢١ ـ الموجز في الأدب العربي وتاريخه، حنا الفاخوري، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
٢٢ ـ نقائض جرير والأخطل، أبو تمام، تعليق: إنطوان صالحاني، بيروت: دار الكتب العلمية.

فهـــرس

الفصل الثالث
من القرآن الكريم
سورة الحجرات

الفصل الرابع
الخطابة في صدر الإسلام
«حجة الوداع»

الفصل الخامس
الرسائل في صدر الإسلام
رسالة عمر في القضاء

الفصل السادس
من الشعر الأموي
رائية عمر بن أبي ربيعة

الفصل السابع
من الشعر الأموي
النقائض (تعريفها وتطورها)